سلسلة
(وجادلهم بالتي هي أحسن)
-١-

الأساطير التوراتية

في التراث المصري

(مقارنة تاريخية بين القرآن والتوراة والتراث المصري)

حسن الشريف

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

دار الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

زهراء مدينة نصر - المرحلة الثانية
ص.ب: ١٠ - الرمز البريدي: ١١٥٢٨
تليفون: ٢٤١٠٦٧٤٨ - ٠١٠٠٠١٣٥٤٠٦
www.darelhekma.net
hassanelsherif@darelhekma.net

obeikandl.com

obeikandl.com

قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

obeikandi.com

obeikandl.com

الإهداء

❖ إلى العنقاء (الفينكس) . .

التي تحترق حتى تصير رمادًا . .

ثم تنبعث من رمادها مجددًا . .

❖ إلى الحقيقة .. وسط نيران الزيف . . !

obeikandi.com

obeikandl.com

مقدمة لا بد منها

تقول المصادر التاريخية الموثقة، لما ضعف ملوك الأسرة الثالثة عشرة، وتفككت البلاد من جراء ما نشب بين أمراء الأقاليم، من نزاع وحروب مستمرة، أغار على مصر قوم آسيويون، اختفت آراء المؤرخين في تحديد أصلهم، وتباينت آراؤهم في أسباب إطلاق اسم (الهكسوس) على هؤلاء القوم.

فمن المؤرخين من يقول إن كلمة هكسوس معناها (حكام الرعاة)، إذ تتكون الكلمة من شقين (هك) ومعناها في اللغة الهيروغليفية القديمة (ملك)، والشق الثاني (سوس) أي راعي، وتكتب هكذا Hyksos، ويقول المؤرخون الذين تبنوا هذا الرأي إن المصريين القدماء هم الذين أطلقوا هذا الاسم عليهم بل وزادوا على ذلك بأن وصفوهم برابرة وكفار؛ لأنهم لما غزوا مصر خربوا المعابد وقتلوا النساء والأطفال، وعاملوا الناس بقسوة ووحشية.

ويقول بعض المؤرخين أنه من المرجح أن هؤلاء القوم ساميون من العرب أو فينيقيون، كانوا يحكمون سوريا وفلسطين، ثم غزوا مصر وحكموها، وقد أشار إلى ذلك أحد ملوك هؤلاء القوم، إذ دوَّن اسمه وكلمة أخرى قريبة الشبه في نطقها بكلمة (سوس) sos، ومعناها الأقطار، وعليه يمكن القول بأن كلمة (هكسوس) معناها (حاكم الأقطار).

ثم يقول كتاب (تاريخ مصر القديمة – للصف الأول الثانوي) والذي أصدرته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٥١م كمنهج للتاريخ: (وكان الهكسوس يفوقون المصريين في فنون الحرب، بمعرفتهم بالعجلات الحربية، التي كانت تجرها الخيول، التي لم تكن معروفة في مصر وقتئذ، فتخترق صفوف المشاة، وكان لهذا التفوق أثر كبير في هزيمة المصريين، واستولى الهكسوس على مصر بسهولة، وقد ساعدهم على ذلك، ما كانت عليه من ضعف وانحلال بسبب الفتن والحروب الداخلية، وقد اتخذ الهكسوس (أفاريس) عاصمة لهم لتكون وسلط أملاكهم في مصر وسوريا) .. ثم يستطرد نفس المصدر ويقول على مدينة (أفاريس) هذه: (مكانها غير معلوم بالضبط، ومن المرجح أن

يكون في شرق الدلتا، قرب بحيرة المنزلة، ولم يبق من آثارها شيء، حتى يتعذر تحديد موقعها؛ لأن المصريين دمروها بعد أن طردوا الهكسوس من بلادهم، وكذلك فعلوا بكل ما خلفوه من آثار، انتقامًا منهم وكراهية لهم) أ.هـ.

ولنلاحظ أيضًا أن مدينة (رعمسيس) التوراتية المزعومة لا أثر لها على الإطلاق، مما يخالف الأنماط المعمارية الضخمة والراسخة التي سادت عصر الرعامسة، وآثارهم تشهد عليها، ولعل كاتبي التوراة قصدوا مدينة (بر رمسيس) التي اكتشفت لها بعض الأطلال التاريخية، وثبت أنها أقيمت فوق أنقاض وأطلال مدينة (أفاريس) أو (أواريس) بالضبط.

ويبدو أنه عند كتابة التوراة في زمن الأسر البابلي وبعد تلك الأحداث بزمن طويل، أن المدينة التي كانت موجودة بالفعل في هذا الموقع هي مدينة (بر رمسيس)، مما دعا كاتبو التوراة لإدراج اسمها بدل الاسم التاريخي الحقيقي للمدينة الموجودة في زمان وقوع الأحداث وهي مدينة (أفاريس) أو (أواريس).

وبناءً عليه نستنتج من تطابق الموقع بين المدينتين، أنه يشير لحقيقة واحدة ألا وهي أن مدينة (رعمسيس) هي نفسها مدينة (أفاريس).

ثم يقول نفس المصدر السابق: (أن الهكسوس استبقوا الملوك المصريين على عروشهم، في خلال الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، واكتفوا بأن جعلوهم خاضعين لهم، ثم قبضوا على زمام الأمور وجعلوا أنفسهم ملوكًا وفراعنة خلال الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، أذاقوا خلالها المصريين مر العذاب والهوان، فجعلوا يحرقون المدن ويحطمون المعابد، ويعتدون على الأهلين، ويستعبدون النساء والأطفال، غير أنه غلب عليهم التمدن المصري بعد ذلك، وحاولوا التمصر .. ومع ذلك ظل المصريون ينظرون إليهم نظرات المهانة والاحتقار، ولم يقبلوا منهم أي نوع من التقرب) أ.هـ.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن هذا الأسلوب البربري الوحشي، كان هو نفس الأسلوب الذي اتبعه العبرانيون تمامًا عندما غزوا فلسطين بعد خروجهم من مصر

وبعد موت موسى وهارون، وكان هذا الغزو على يد يشوع بن نون، ولعله أيضًا لا يفوتنا التذكير بأن المصريين كانوا يمقتون هؤلاء القوم (العبرانيون) ويحتقرونهم ويعتبرونهم نجس ورجس كما جاء في التوراة نفسها.

تقول التوراة عند لقاء أخوة يوسف العبرانيين بيوسف المصري حينذاك ما نصه: [ثم غسل وجهه وخرج وتجلد، وقال: "قدموا طعاماً"، فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعامًا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين] (تكوين ٤٣: ٣١-٣٢).

وهناك نقطة أخرى أود التنويه إليها وهي الخاصة بـ(المركبات الحربية)، ألا وهي أن أبسط المعلومات التاريخية تشير إلى أن العجلات والخيول كانت معروفة في مناطق بين النهرين ونراها واضحة جلية على كل نقوش معابد تلك الحضارات بدءًا من السومريين والآشوريين، والبابليين، وهذه المناطق التي وفد منها بنو إسرائيل إلى مصر، وهذه العجلات والخيول لم تكن معروفة للمصريين وقتئذ.

ولعل المركبات الحربية تلك هي التي ميزت الهكسوس عن المصريين، ومن المثير للدهشة هنا هو محاولة التبرؤ التوراتية من تلك المركبات الحربية، وإقحامها بشكل ملفت للنظر وإظهارها بأنها كانت نوعًا من وسائل الانتقال أو القتال للمصريين بشكل بحت. مما يظهر بجلاء في التوراة وفي سفر التكوين الإصحاح ٣٧ وما بعده.

بل ومن الملاحظ أيضًا من هذا السفر أن كاتبي التوراة أصروا أيضًا على أن تلك المركبات والعجلات لم تكن موجودة عند اليهود مطلقًا، منذ دخولهم إلى مصر على الحمير، كما تزعم التوراة، وكذلك وقت خروجهم من مصر وهم مشاة. ولعل سفر يشوع بن نون يظهر إفك الأساطير التوراتية، بما يُرى في غزوه لفلسطين والممالك الأخرى بعد خروج بني إسرائيل من مصر ولسنوات قليلة، ويظهر من حركته السريعة وكمائنه الثابتة والمتحركة أيضًا، وحركات التفاف حربي، وغيرها من التكتيكات الحربية التي جعلتهم يتفوقون على تلك الممالك بل وحرقها وتدميرها وقتل كل ما هو حي فيها كما تقول التوراة ذاتها.

نعود لنقطة تسمية الهكسوس وتفسيرها بأنهم كانوا (ملوكًا رعاة)، وأن هؤلاء الرعاة قد وفدوا إلى مصر، حتى قويت شوكتهم، ونستحضر هنا نصًا توراتيًا يقول عن بني إسرائيل عند دخولهم إلى مصر بأنهم (رعاة) مما لا يجعل أي توراتي يهودي أن ينكره، ألا وهو: [ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: "أصعد وأخبر فرعون وأقول له: إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشي، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل مالهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال: ما صناعتكم؟ أن تقولوا: عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعًا، لكي تسكنوا في أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم رجس للمصريين"] (تكوين ٤٦: ٣١-٣٤).

عمومًا فبنو إسرائيل -كما تشير التوراة ذاتها- هم شعب الرعاة الذين وفدوا إلى مصر عن طريق التسلل، وكانوا في ذاك الوقت قلة، قدر تعدادهم كاتبو التوراة بسبعين نفسًا، وتزايدوا فيها بشكل مخيف في مدة قدرها كاتبو التوراة بـ ٤٣٠ سنة، أي أربعة قرون ونيف، حتى وصل تعدادهم وقت خروجهم من مصر كما تقول التوراة ذاتها، [فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت، نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أيضًا مع غنم وبقر، مواش وافرة جدًا] (خروج ١٢: ٣٧-٣٨).

ولعله ليس بالحدث الهين أن يتم اقتلاع شعب بأكمله من منطقة أتى إليها وتوطّن فيها لمدة تربو على الأربعة قرون، حتى يغيب ذكره تمامًا عن ذاكرة المصريين القدماء الذين سجلوا كل صغيرة وكبيرة مرت بهم، وهذا الحدث الذي يمثل اقتلاع شعب بأكمله وجد في الوثائق المصرية القديمة مرة واحدة، وهي حادثة اقتلاع الهكسوس من مصر نهائيًا بعد توطنهم في الجهة الشرقية من مصر عدة قرون، كما ذكرت تلك الحادثة (حادثة اقتلاع شعب بأكمله) في الوثائق التوراتية الدينية ولمرة واحدة أيضًا، عند مطاردة فرعون مصر وجيشه لبني إسرائيل مما أدى إلى خروجهم من مصر بالكامل.

وحيث إننا نعلم أن شعوب العالم كانت مغرقة وقتئذ بتسجيل أخبارها على الجدران مثل الفراعنة والبابليين وغيرهم .. فإنني أورد حقيقة توراتية ألا وهي أن عقيدة بني إسرائيل تمنع بل تحرم عليهم أن يبنوا المعابد الحجرية أو حتى الكتابة عليها

بل وتحريم تهذيب أحجار المعابد بإزميل، مبررة أن هذا العمل يدنس قدسيتها، وهذا يشير صراحة للعلة من عدم وجود آثار لبني إسرائيل في مصر، وهذا الفكر قد تبلور في مرحلة لاحقة عند كتابة ما يسمى بالتوراة.

والتحليل السابق ينفي تمامًا تدخل بني إسرائيل في بناء ونقش الكتابات على جدران المعابد والقبور المصرية، ويثبت هذا القول ما ادعته التوراة ذاتها من أن طبيعة عملهم في السخرة المصرية هو صناعة الطوب اللبن من الطين والقش، بل ولم يطلب قدماء المصريين الفراعنة منهم – وهم اليد العاملة الرخيصة في الرق- مطلقًا العمل في المحاجر لقطع الصخور، ويجوز أن المصريين لم يطلبوا منهم ذلك لما رأوه من إظهار فشلهم لمثل ذلك العمل أو تكاسلهم، ويجوز أيضًا أن المصريين لم يطلبوا منهم العمل في المعابد والمقابر المقدسة لكونهم رعاة أنجاس كما تقول التوراة ذاتها.

ويظهر هذا الفشل جليًا في بناء هيكل سليمان، والذي كان ذا شكل بسيط مستطيل طوله ٧٠ ذراعًا وعرضه عشرين ذراعًا كما وصفته التوراة، لقد طلبوا مهندسًا من حورام ملك صور اللبناني ليصممه لهم، وقد استغلوا السخرة الفلسطينية بعشرات الآلاف في قطع الحجارة.

عمومًا فالمعابد والمقابر والأهرام الضخمة برسومها ونقوشها كانت رمزًا دينيا عند المصريين القدماء، في الوقت الذي كان مجرد مقاربته شركًا في عقائد اليهود، مما يفسر غياب أي آثار للهكسوس في مصر وببساطة لأن هؤلاء الهكسوس هم اليهود أنفسهم. تقول التوراة على لسان الرب مخاطبًا موسى: [مذبحًا من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك، وذبائح سلامتك، غنمك وبقرك، في كل الأماكن التي أصنع لاسمي ذكرًا آتي إليك وأباركك، وإن صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة، إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كي لا تنكشف عورتك عليه] (الخروج ٢٠ : ٢٤ – ٢٦).

وعلى هذا النمط كان المسكن المقدس الذي طلبه الرب من موسى بعد خروجهم من مصر مصنوعًا فقط من الخشب والقماش والجلود، ولا يحتوي على أية أحجار أو صخور. أما عن الوحيد الذي له ميزة الكتابة على الألواح الحجرية في عقيدة القوم

فكان هو الإله فقط، تقول التوراة: [ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة: لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله] (الخروج ٣١ : ١٨).

وهناك نقطتان أخيرتان أود أن أنوه عنهما قبل الانتهاء من هذه الجدلية:

الأولى: لم يكن أسلوب الخروج في التاريخ الديني لبني إسرائيل هو المطابق فقط مع أسلوب الخروج التاريخي للهكسوس .. بل إن أسلوب الدخول إلى مصر للاثنين بني إسرائيل والهكسوس كان واحدًا أيضًا، فكما نوهت عن دخول بني إسرائيل بطريق التسلل ثم التغلغل ثم السيطرة، أنوه أيضًا أن الوثائق التاريخية تصف دخول الهكسوس إلى مصر بأنه كان شيئًا غامضًا مبهمًا، إذ لم يكن دخولهم بشكل حربي أو على أنهم غزاة، بل كان دخولهم أيضًا عن طريق التسلل ثم التغلغل ثم السيطرة.

ملحوظة: هناك شواهد تاريخية تدل على وجود الآسويين الساميين في مصر قبل التاريخ الفعلي لملوك الهكسوس والذي بدأ مع نهايات الدولة الوسطى. فمثلاً هناك مقبرة للمسمى (ختوم حتب الثاني) ويرجع عصرها إلى بداية الدولة الوسطى الأسرة (١٢)، وبها مناظر ملونة تمثل الآسيويين في مصر.

النقطة الثانية: تتمثل في إحداث تغيير صغير بنطق كلمة هكسوس، وكذلك في هجاء حروفها من خلال الإصبع اليهودي لخلق ارتباك دائم عند محاولة رسم وصياغة التاريخ بصورة صحيحة، وطريقة التعمية التاريخية هذه تعتمد الأسماء مرة بشكلها العبراني في موضع، ومرة بشكلها الآرامي في موضع آخر، ومرة بشكلها اليوناني في موضع ثالث.

وفي نقطتنا محل البحث، فقد تم إخفاء النطق الفرعوني لكلمة (هكسوس) من المصادر التاريخية، ومن ثم اعتماد النطق اليوناني، ثم تغيير الهجاء فيه، ثم الرجوع لإيجاد نفس المعنى المصري القديم المقابل للنطق أو الهجاء اليوناني، فتم كتابة (هكسوس) Hyksos من مقطعين (هك Hyk) وتعني (ملك)، والثاني (سوس sos) وتعني (رعاة)، لتصبح الكلمة معناها (ملوك الرعاة).

أما نحن فنقول إن الإغريق عندما كتبوا التاريخ المصري، قد ترجموا الأسماء الفرعونية للمعنى اليوناني، فمثلا ترجموا مدينة (أون) أي مدينة الشمس أو عين شمس في المصرية القديمة، إلى (هليوبولويس) اليونانية إذ لفظ (هليو = شمس)، ولفظ (بوليس = مدينة) وعليه تكون الكلمة (مدينة الشمس). وهذا خطأ فادح تاريخيًا إذ الصحيح أن الأسماء لا يصح ترجمتها.

وقد فطن المؤرخون لكم التحريف الموجود في الأسلوب الإغريقي من ترجمة الأسماء الفرعونية إلى معاني إغريقية، مما أثر تأثيرًا خطيرًا في كثير من الأحداث التاريخية، ولم يتمكن المؤرخون من حل هذه الأحاجي إلا بعد تصحيح هذا التحريف.

ومن تحريف الإغريق للأسماء الفرعونية بترجمتها إلى معان إغريقية، تمثال (أبو الهول) واسمه في المصرية القديمة (شيس عنخ) أي واهب أو مانح الحياة، فقد ترجمه الإغريق إلى (سفنكس) وهو اسم ماردة معروفة في الأساطير الإغريقية، وهذا الاسم الإغريقي قد أضفى على تمثال أبي الهول ثوبًا غامضًا، وما زال أبو الهول محوطًا بسياج من السر الرهيب، وهكذا فعل الإغريق مع كل الأسماء المصرية القديمة، وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها سأفرد لها بحثًا خاصًا في هذه السلسلة إن شاء الله.

وبناء على ما سقناه، تم ترجمة الكلمة المصرية القديمة التي تدل على هذا الشعب لليونانية باسم (هكسوس) وكتبت بأسلوب خاطئ وخبيث Hyksos بينما الهجاء الصحيح للكلمة هو Hexos، حيث تعني كلمة Hexa (هكسا) اليونانية ثم اللاتينية رقم (٦). أي أن الكلمة تعني (شعب التسديس).

أما عن النطق المصري لكلمة (هكسوس) اليونانية فقد كان (هك شيسو) و(هك) تعني (ملوك)، أما لفظ (شيسو) فهي رقم (٦) باللغة المصرية القديمة.

وكلنا يعلم أن الشعب الإسرائيلي يقدس الرقم (٦)، هذا الشعب الذي رسم شعاره نجمة سداسية والتي اسمها اليوناني واللاتيني والإنجليزي أيضًا (هكساجون)، وهذا الشعب يعتقد أن الخلق تم في (٦) أيام واستراح الله وتنفس في اليوم السابع، وأيام عملية الخلق هذه تسمى (هكسا ميرون)، وهؤلاء هم أصحاب الشمعدان السداسي،

ومن مقدساته خبز الحضرة، والموجود لاحقًا على مائدة خبز الوجود، والمكون من صفين كل صف مكون من ستة أرغفة تتغير كل ستة أيام ... إلى آخر كل الدورات السداسية الموجودة في توراتهم.

ولعل المصريين القدماء قد أطلقوا على هذا الشعب ذلك الاسم (الهكشيسو) لما وجدوه من تناقض فكرة الخلق السداسية الأيام مع الفكرة المصرية عنه، وكذلك أسلوب العمل السداسي الأيام مما كان يتضارب مع المصالح الاقتصادية المصرية. مما جعل المصريين يطلقون على هذا الشعب (شعب الستة) أو (الشعب السداسي) أو (ملوك الستة) أو (حكام السداسيات).

وهناك سؤال لابد أن يطرح نفسه على ساحة النقاش ألا وهو: كيف يكون الكلام السابق منطقيًا وخاصة أن فكرة السداسية أتت مع التوراة بعد خروج بني إسرائيل من مصر على عهد موسى؟ أي أنها لم تكن معاصرة لفترة وجود اليهود أو الهكسوس في مصر؟

ونرد قائلين أن تلك المعتقدات ثبت قطعيًا أنها معتقدات قديمة راسخة قبل الزمان المفترض لكتابة التوراة، وأعيدت صياغتها مرة أخرى في نموذج التوراة الموجود حاليًا.

وللتلخيص نقول إننا نسوق الأدلة التالية في التدليل على أن اليهود هم الهكسوس أنفسهم:

١- الأصل العرقي المشترك بين بني إسرائيل في التوراة، وبين الهكسوس في التاريخ المصري (كلاهما من أصل سامي أتى من منطقة الشام وبين النهرين). مما حير المؤرخين دائمًا عن العلاقة بين اليهود والهكسوس.

٢- أسلوب الدخول الغامض لكليهما إلى مصر، والذي لا يتسم بالغزو العسكري أو الحربي، بل عن طريق التسلل غير الظاهر تاريخيًا.

٣- كلاهما استوطن في مصر لعدة قرون، نما فيها التعداد البشري بشدة، ومن العجيب هنا تطابق رقمي التوراة والوثائق المصرية للتعداد البشري.

٤- أسلوب الحياة المنعزل عن الحياة المصرية السائدة حينذاك عقائديًا وجغرافيًا لكليهما (بني إسرائيل والهكسوس)، وكذلك اقتصار وجودهم على منطقة الدلتا ومصر السفلى، مما يعد مصر أول بلد في التاريخ يجتمع فيها الجيتو اليهودي.

٥- غياب أية آثار لكليهما – إلا ما نذر- في الوثائق المصرية التي وجدت على الأبنية الحجرية الضخمة، مما يتفق تمامًا ومعتقدات اليهود الدينية.

٦- الطرد الجماعي، هذا الأسلوب الذي تم به اقتلاع الهكسوس من مصر وموجود بالتاريخ المادي، وهو نفس الأسلوب الذي اقتلع به اليهود، وموجود في التاريخ الديني لليهود.

٧- وجود شواهد تاريخية تشير إلى الخروج المرحلي لليهود من مصر، ويتفق مع افتراض المؤرخين لأسلوب خروج الهكسوس منها.

٨- تقاطع الزمن التاريخي لوجود كليهما في مصر (منذ أواخر الدولة القديمة مرورًا بالدولة الوسطى كلها). ومن المثير للدهشة هنا أن التوراة ادعت أن بني إسرائيل قضوا في مصر ٤٣٠ سنة، وكذلك كان الأثر الذي قاد للتعرف على الهكسوس في مصر هو لوحة اسمها (لوحة الأربع مئة عام).

٩- أسلوب التسمية الإغريقي للهكسوس، الذي هو ترجمة حرفية للتسمية المصرية القديمة (هكشيسو)، والذي تم تمويهه بشكل مثير لإخفاء الحقيقة الوحيدة بأن الهكسوس هم اليهود أنفسهم.

١٠- التكوين الاجتماعي للشعبين، وأنهم من (الرعاة).

١١- تطابق مشاعر المصريين تجاه كلا الشعبين كما سجلتها الوثائق؛ حيث تشير التوراة إلى أن المصريين كانوا يعتبرون اليهود رجس ودنس، كما تشير الوثائق المادية إلى أن المصريين كانوا ينظرون للهكسوس بعين الاحتقار والإهانة.

١٢- تطابق المنطقة الجغرافية التي قطن فيها اليهود في مصر (جاسان) بشرق الدلتا، مع المنطقة الجغرافية التي عاش فيها الهكسوس تمامًا، بل ووقوع منطقة (أواريس)

عاصمة الهكسوس، في نفس النقطة الجغرافية التي كانت حاضرة اليهود توراتيًا (رعمسيس)، والتي لم توجد مطلقًا لها أية آثار وإنما وجدت آثار لمدينة أخرى بنيت بالضبط فوق منطقة (أواريس) وتحمل اسم (بر رمسيس) في مرحلة زمنية أحدث من زمن وجود اليهود في مصر، والتي من المتوقع أن تكون حملت اسم (رع مسيس) إبان الأسر البابلي، أي إبان الحقبة التي كتبت فيها التوراة.

١٣- تشابه أسماء ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر، بالأسماء الآرامية والعبرية القديمة أو على أقل تقدير في أشكالها المبكرة، مثل (ياكوفير) الذي هو (ياكوف) الذي هو يعقوب ذاته.

١٤- الأسلوب الحربي الذي دونه المصريون عن الهكسوس، والمتمثل في التدمير والإفناء الشامل، يتطابق تمامًا مع ما ذكرته التوراة عن أسلوب اليهود في التعامل مع الشعوب الأخرى (راجع سفر الخروج وسفر يشوع).

١٥- التاريخ المادي، الذي ظل قاصرًا عن تفسير الكثير من الأحجيات، مثل: كيف يمكن اقتلاع شعب الهكسوس كاملاً، بطريقة الطرد الجماعي، تعداده من ٢ – ٣ ملايين دون ترك أية فلول خلفه؟ وما مصير تلك الفلول؟ وإلى أين تم طرد هذا الشعب بأكمله؟ وأين ذهبوا بعد طردهم من مصر؟ وأين استوطن هذا الشعب؟ .. كل هذه الأسئلة تحتاج إلى ردود منطقية؛ حيث إنه من غير المعقول أن يتم اقتلاع شعب تعداده بالملايين بالكامل ومرة واحدة، ثم يتبخر هذا الشعب، وخاصة أننا نتحدث عن شعب ذي مهارة حربية عالية وأهم رموز هذه المهارة بل وأهم رموز هذا الشعب استخدامه للعربات الحربية التي انكسر أمامها المصريون لعدة قرون لأنهم ليسوا على دراية بها.

***

وفي الختام، أود أن أقول أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يشير إشارات ذات مغزى إلى الفترة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر منذ دخولهم وحتى خروجهم، مثل قصة قارون وهي قصة قرآنية خالصة، ولم

يرد لقارون هذا أي ذكر في التوراة مطلقًا، على الرغم من أن تركيب اسمه يظهر أنه اسم عبراني سامي، مثل (هارون)، حيث يظهر الحرف الساكن ووراءه متحرك بالتتابع الذي هو من خصائص اللغات السامية، ويخالف في تركيبه أسلوب التسميات الفرعونية.

يقول تعالى في قصة قارون: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

وتلك الآيات تشير إلى مدى الاستعلاء والصلف الذي مارسه حكام اليهود ضد المصريين، بل وضد الشعب اليهودي نفسه، ومدى تسلطهم على المقدرات الاقتصادية للبلاد، وتشير أيضًا إلى محاولة هذا الثري المتغطرس (قارون) التشبه بالفراعنه في المراكب والزينة وخلافه، كما مارس أيضًا قدرًا كبيرًا من الظلم والاستعباد تجاه بني إسرائيل أنفسهم في منطقته الخاصة به، كما تشير إلى تواجده زمانيًا في فترة موسى نفسه، كما تشير الآيات القرآنية إلى أسلوب القضاء عليه بمعجزة إلهية هي الخسف، والتي تختلف كلية عن الأسلوب الذي تم القضاء به على فرعون وهامان بالغرق أثناء محاولة تتبع بني إسرائيل.

وقال تعالى في محكم آياته: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة].

والعارف بالتاريخ قد يتساءل: كيف يقول موسى لقومه (وجعلكم ملوكًا) وهم لا يزالون بعد في برية التيه، وقبل دخولهم الأراضي الفلسطينية، وقبل تنصيب أي ملك إسرائيلي؟

ومن المعلوم أن بني إسرائيل كانوا يعتبرون الله هو ملكهم، وهكذا فبعد قيادة موسى ثم يشوع بن نون لهم، تولى حكمهم من يسمون (القضاة) لفترة زمنية طويلة، وكان أول ملك تم تنصيبه عليهم هو (طالوت) في مرحلة زمنية متأخرة، وهو المعروف في التوراة باسم (شاول)، وعن هذه الحادثة يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ [البقرة].

إذًا والحال هكذا فما معنى أن يقول لهم موسى مذكرًا بآيات الله السابقة، أي في الماضي ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾؟ بينما لم يُتوَّج عليهم ملك إلا في زمان متأخر جدًا عن ذلك بصفه القرآن الكريم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾[1].

(١) هذا النبي هو صموئيل الأول من قضاة بني إسرائيل. والذي قالت التوراة فيه على لسان الرب [فقال الرب لصموئيل: «اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك؛ لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم] (صموئيل الأول ٨ :٧).

والتفسير الوحيد لتلك الأحجية هو أن الله تعالى جعل منهم ملوكًا في الفترة السابقة لموسى وقبل خروجهم من مصر، أي أثناء إقامتهم في مصر بعد دخولهم على يد يوسف عليه السلام، حيث إنهم لم يكونوا شيئًا على الإطلاق قبل ذلك.

وأيضًا فإن محاولة تشبه بني إسرائيل بالمصريين ومحاولة تقليدهم، فهي واضحة أيضًا في القرآن الكريم وخاصة في قصة العِجْل الذهبي الذي صنعوه ليعبدوه وهو يماثل المعبود المصري تمامًا من حيث الشكل والنوعية، وهو (أبيس) عِجْل البحر. والذي اختلق ملك الهكسوس بسببه الحجج كي يحارب ملك طيبة، بأن صوت هذا العِجْل الذي يعيش في نهر النيل، والذي هو على بعد مئات الأميال من عاصمة الهكسوس (أواريس) في شرق الدلتا، يزعجه ويقض مضجعه، مما أعده ملك طيبة والمصريون إهانة لهم، وهذا بالتأكيد لقدسية هذا العِجْل الضخم ذي الصوت العالي المُدوِّ، فهبَّ ملك طيبة لمحاربة الهكسوس، وظلت الحرب مستعرة بينهم لسنوات طوال، حتى تولى الملك أحمس الأول مقاليد الحكم، وقام بطردهم من مصر بأكملهم عدا شرذمة قليلة منهم من هنا ومن هناك.

ومن المدهش أن الألفاظ القرآنية في قصة العجل الذهبي، تشير أنه لم يكن عجلاً عاديًا، بل هو عجل البحر معبود المصريين، حيث قال تعالى: ﴿ ...عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ...﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾[طه]، وقال تعالى: ﴿ ... وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ...﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة].

فهذا العجل هو الحيوان الذي (لَّهُۥ خُوَارٌ) مُدوٍّ يصم الآذان، وهو ضخم جدًا (جسدًا)، وتشير إليه أيضًا لفظة (الْيَمِّ) و (وَأُشْرِبُوا) واللتان تصوران لنا هذا العجل وسط الماء.

***

عمومًا فإنه من المحير أن نطرح هذا السؤال الآن بعد كل المعطيات السابقة والتي

تدلل على أن اليهود هم الهكسوس أنفسهم:

لماذا تنصّل كهنة اليهود كاتبو التوراة من تلك الحقيقة وأعدوها شيئًا مرعبًا فدبروا كل تلك المؤامرات التاريخية التحريفية، والتي لابد أنها قد استغرقت منهم جهدًا وفكرًا وتخطيطًا طويلاً ومنظمًا في الوقت نفسه؟

والإجابة يسيرة على ضوء المعرفة بالفكر العقائدي اليهودي التوراتي، فالفكرة العقائدية تتلخص في وجود شعب معين مختار إلهيًا، وهذا الشعب مظلوم مضطهد من كل الشعوب التي تجاوره أو تتعامل معه، وهذا الإله الذي اختارهم ينحاز دائمًا لهم وينصرهم في النهاية، وهذا الفكر ممتد منذ دخول اليهود إلى مصر كأقلية مستضعفة ثم نسدل الستار لأربعة قرون ونيف، لتخرج علينا ثانية بوجود هذا الشعب المستضعف الذي يئن تحت وطأة عسف المصريين لا لسبب إلا ربما للجحود والنسيان من قبل المصريين لأفضال هذا الشعب المختار عليهم، والمتمثلة في سياسات يوسف الزراعية والاقتصادية والإدارية.

وهذه الفكرة سائدة حتى الآن ! فهم الشعب المستضعف في أوروبا الذي تقام ضده المذابح المروعة وآخرها (هولوكوست) والتي دوت إعلاميًا، وهم الآن الشعب الديمقراطي الصغير الواقع وسط مئات الملايين من المسلمين البرابرة والذين يريدون تحطيمهم بل وإفناءهم، وهذا ما يصورون به أنفسهم أمام العالم الآن، الشعب المستضعف الخائف وسط عصف البرابرة المسلمين.

أما القصة الحقيقية المناقضة، والتي تشير إلى كون اليهود هم الهكسوس أنفسهم وقصة الهكسوس معروفة وموثقة، لتضرب إذن تلك الفكرة العقائدية الكهنوتية التوراتية اليهودية في سويداء القلب، فلا هم كانوا بالمستضعفين أثناء وجودهم في مصر، ولا هم كانوا بالأقلية، بل كانوا قومًا عُتاة أذاقوا المصريين الهوان لقرون.

أما نحن البرابرة، فنعرف الوجه الآخر من القصة، هي أننا آويناهم في بلادنا، ووسط سماحتنا الدينية لقرون طويلة، نالوا فيها الحماية والرفاهية، ثم عندما انقلبت الأحوال استغلوا فترة تاريخية معينة، هبط فيها الأداء الإسلامي أمام قوى الغرب

الصليبي، فتحالفوا معهم ضدنا، على الرغم من كونهم ألد أعدائهم تاريخيًا، واحتلوا أراضينا، وأعملوا فينا السيف بأسلوب دموي مرعب، ولا زالوا يحيكون ضدنا المؤامرات لتدميرنا عسكريًا واقتصاديًا وعقائديا.

وألخص فأقول إن معرفة الهوية اليهودية وإماطة اللثام عن كونهم هم الهكسوس، لحقيقة تضرب أساس الفكر اليهودي في منبعه الأول، ولذا وجب إخفاء الحقيقة بكل الأساليب ليستمر العويل في وجه كل العالم بتهمة مشابهة هي (اضطهاد السامية ومعاداتها).

وإلى هنا أكتفي بهذا القدر، وأقرر أنه لا توجد ذرة شك في أن اليهود هم الهكسوس تمامًا وليسوا فقط مشابهين لهم أو هم فرقة منهم أو خلافه، ولا شك عندي أن التاريخ المادي إن لم يعترف بتلك الحقيقة يصبح غير منطقي.

والآن نأتي للسؤال المهم جدًا وهو: من هم بنو إسرائيل؟ وما عقيدتهم؟ ومن الإله الذي يدافع عنهم توراتيًا؟

حسن الشريف

obeikandl.com

تمهيد

إن مراجعة أعمال ما يسمى (مؤرخو التوراة) الذين حاولوا إعادة كتابة التاريخ الإنساني القديم بشكل توراتي بحت، أو بالاستناد الملتوي إلى بعض مستجدات العلوم المستحدثة للتأريخ من منطق وفلسفة وكشوف أثرية ..إلخ، يُرينا أنها لا تعدو محاولات محمومة لإضفاء نوع من المصداقية أو الشرعية على المشروع الصهيوني الحديث في فلسطين، باعتباره امتدادًا طبيعيًا للمشروع القديم (المزعوم)، وذلك بمحاولة إضفاء العقلانية على كل ما هو غير منطقي، مما يتجلى في محاولة ربط وتفسير الأحداث التوراتية الأسطورية بشكل حديث براق، يضفي عليها بعض المنطقية التاريخية؛ حيث إن استعراض تلك المحاولات يرينا بوضوح أن نماذج تلك الكتابات التأريخية قد تغيرت وتقافزت بالتواكب مع تغير الظروف السياسية والحربية والاجتماعية التي سادت في القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، حيث نراها تنتقل مثلاً من نظرية مشروعية غزو الشعب المختار حامل الرسالة الدينية والأخلاقية لشعوب أخرى منحطة، بل وإبادتها أو تهميشها كما كان الحال في بادئ أمر تلك النظريات، وصولاً إلى نظرية أن هذا الغزو الإسرائيلي لفلسطين لم يكن شاملاً أو جذريًا أو دمويًا كما تشير النصوص التوراتية بشكل مباشر، بل كان تغييرًا اجتماعيًا دينيًا حضاريًا، تم بشكل تدريجي، وبأسلوب إنساني ثوري، شاركت فيه فئات الشعب المطحونة، من وطأة الأنظمة الفاسدة، مستلهمة الروح الثورية التوراتية، هكذا فإن تلك النماذج الأكاديمية الصهيونية قد قفزت من يمين المقياس حيث نظريات التفوق العرقي والديني بما يناظر الفكر النازي، إلى أقصى اليسار بتبني نظرية الفكر الشيوعي الذي قام على مصطلحات الثورة الشعبية الاجتماعية الاقتصادية في وقت واحد، وفي خاتمة المطاف تصب تلك المشاريع بعض الشرعية على قيام دولة إسرائيل الجديدة، بغض النظر عن الوسيلة أو أخلاقيات البحث العلمي.

وهنا لابد لنا أن نصطدم بسؤال حتمي يحتاج إلى رد صريح من مؤرخي التوراة المصرين على مقولة أن منبع الحضارة الغربية هو دولة اليهود القديمة في فلسطين، وهو: هل يمكن رد الحضارة الغربية إلى المنبع اليهودي، الشرقي، البدوي، والمنغلق عقائديًا

وبشريًا، بل والمنبوذ تاريخيًا؟ بل هل يمكن حتى للنموذج المسيحي الذي لم يأخذ طريقه إلى أوروبا إلا بعد صبغه بالصبغة الرومانية أن يدعي هذا التأثير؟ ..

والإجابة هي: إن المتأمل في أسلوب الحياة الغربية بأنماطها السلوكية السائدة، يستطيع ملاحظة تباعد هذه الأنماط السلوكية العملية النفعية عن النموذج الديني في الكتاب المقدس، كما يستطيع التفرقة والفصل والتباين الواضح بين تأثير الأنماط السلوكية المحلية في زمن الحضارة الإغريقية والرومانية أي قبل المسيحية، وبين الأنماط السلوكية الشرقية النمطية المتمثلة في قصص العهد القديم.

إن هذه المقولة تتناقض مع ما أجمع عليه كل المؤرخين بلا استثناء بقولهم إن النهضة الأوروبية قامت أو بدأت بفصل الدين عن الدولة العلمانية، فإن نمو الأنماط السلوكية للحضارة الأوروبية الحديثة قد تأثر بعوامل أبعد تأثيرًا من عامل الأديان الوافدة من الشرق الأوسط بشكلها الأصلي، والتي كان لزامًا عليها أن تأخذ صبغة الثقافات الرومانية والإغريقية لكي تندمج في تلك المجتمعات.

ومن ناحية أخرى، علينا أن نوقن أن قيم إسرائيل اليهودية القديمة كان لابد لها لكي تعبر إلى أوروبا، أن تعبر عن طريق مصر، ليس عن طريق الاحتكاك بمعازل الجيتو المغلقة، ولكن في صورة صياغتها للمسيحية.

لقد حاول مؤرخو التوراة فرض شرعية ومنطق للحاضر، عن طريق اختلاق وتزوير الماضي، والذي لم يتواجد على أرض الحقيقة يومًا ما، والذي يتم إظهاره دائمًا للعالم حاليًا، بشكل أحادي النظرة، وبصورة يتضح منها أن تزوير التاريخ كان يتم دائمًا ليتلاقى مع معطيات الفرضيات اللاهوتية التي تطرحها التوراة، والتي هي نتاج خيال خصب منحاز ذو أغراض مادية، وها هي مرتكزات هذا التأريخ التوراتي تتهاوى واحدة تلو الأخرى أمام مستجدات كثيرة مستحدثة، ولم يبق لانبلاج الحقيقة سوى كشف الستار الديني الأسطوري لتلك الأساطير التاريخية من حيث المنشأ والتطور والأسلوب والهدف.

لعل من أعنف المحن العقلية التي تمر على قارئ القرآن، ومرت بي شخصيًا، هي أحجية لم أجد لها حلاً سهلاً مباشرًا ألا وهي:

لماذا اتخذ الله سبحانه وتعالى هذا الشعب الإسرائيلي محورًا لتنزل معظم رسله وكتبه بل وتأييده، هذا الشعب المتمرد الضال الشرير والذي لم يقم بفعلة واحدة فقط تحسب له من وجهتي النظر القرآنية والتوراتية المحرفة؟

إن استعراض قصة بني إسرائيل كاملة في القرآن، ثم استعراض أسفار التوراة بأكملها ولعشرات المرات، لن يستخلص الرد منه حادثة واحدة ذات مغزى أخلاقي أو إنساني فعلها هؤلاء القوم، بل يستخلص ما قالوه هم بلسانهم وأثبتوه في توراتهم حرفيًا أن هذا الشعب: مادي، ملحد، متعطش للوثنية، دائم الارتداد، عنيد، ماحق، متصلب القلب، جبان، خاطئ ومثقل بالآثام، متذمر، أبناء أفاعي، كذبة، أبناء للفساد، قتلة للأنبياء، شاهدو زور على الله، ومحرفون لكلامه، خونة، ضالون، متمردون، متغطرسون، منافقون، ناقضون للعهود والمواثيق، حمقى، جهلة .. إلى آخر تلك الصفات التي تسم هذا الشعب وشخصيته وصفاته بالدناءة.

ولخص إرميا الذي زعموا نبوته هذا المعنى وهذه الصفات بقوله عن لسان الرب: [إلا أنهم لم يطيعوا ولم يسمعوا، بل سلكوا بمقتضى قلبهم الشرير وعنادهم، وأداروا لي ظهورهم بدل وجوههم، فمنذ أن خرج آباؤكم من مصر إلى هذا اليوم، ثابرت على إرسال عبيدي الأنبياء لينذروهم كل يوم، ومع ذلك لم يطيعوني أو يسمعوني، ولكنهم قسوا قلوبهم، فكانوا في تصرفهم أشر من آبائهم، ولكن عندما تكلمهم بهذه العبارات فإنهم لم يسمعوا، وتدعوهم فلا يجيبونك، فتقول لهم: هذه هي الأمة التي تعصي الرب إلهها، ولا تقبل التأديب، لقد تلاشى الحق وانقطع عن أفواههم] (إرميا ٧: ٢٤-٢٨).

ومن تلك النظرة التوراتية لبني إسرائيل يتضح أن الكتاب المقدس وخاصة التوراة هو الكتاب الأكثر تطرفًا في (معاداة السامية) حسب التعريف اليهودي الحديث.

obeikandl.com

مقارنة بقصة (تاجر البندقية) لـ «وليم شكسبير» الذي أورد فيها البسيط جدًا من ملامح الشخصية اليهودية، وأعدوه مؤلفًا معاديًا للسامية.

أما القرآن الكريم فقد كان أكثر عدلاً وشفقة في تناولهم، حينما أثبت الفضيلة لأنبيائهم، ورسلهم، وصالحيهم، على عكس التوراة التي وصفت كل أنبيائهم بالشرك والكذب والزنا، وخاصة زنا المحارم حتى موسى عليه السلام ذاته وبصفته (المخلص) ابن زنا محارم، والجبن والحقد والسحر والتحايل والطمع وغيرها الكثير.

أما عن السؤال المطروح سابقًا فأقول: إن الإجابة قد تأتي من داخل الفكر الإسرائيلي ذاته، ومن أقوال المسيح كما دونها إنجيل متى: [فلما رأى الكتبة والفريسيون[1] يسوع يأكل مع الجباة والخاطئين قالوا لتلاميذه: «لماذا يأكل مع الجباة والخاطئين؟!» فسمع يسوع وأجاب: «ليس الأصحاء هم المحتاجون لطبيب، بل المرضى، ما جئت لأدعو أبرار بل خاطئين»] (إنجيل متى ٢: ١٦،١٧)، وأورد إنجيل لوقا مثل هذا القول تقريبًا في الإصحاح (٥) الآيات (٣٠-٣٢).

يتضح مما سبق أن القاعدة والقانون الإلهي في غاية إرسال الرسل والأنبياء هي ظلم وفساد الأمم، وكلما كثر عدد الأنبياء في أمة، فهذا دليل على عظيم الفساد والظلم في تلك الأمة.

ولعل الهدف الرئيسي والمحور الأهم لقصص القرآن الكريم، وكذلك الكتب السماوية المقدسة (الأصلية)، هو تجسيد وإظهار الصراع بين الخير والشر، بين تعاليم الله وتعاليم الشيطان، وهكذا فاختيار أمة إسرائيل لتكون محطًا لإنزال الرسل والأنبياء، وإجراء المعجزات والبرهنة المستمرة على وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته، وبشكل مكثف، إنما كان مثالاً لهذا الصراع الدائم، تلك الأمة التي جاءتها البراهين والمعجزات على يد عشرات الأنبياء والرسل، فقتلوهم وصلبوهم وكذبوهم وتمادوا في شرهم وغيّهم وعصيانهم، ولعل ذلك المثال يكون إجابة على من فكروا في أنفسهم سائلين: لماذا يا رب لعنت الشيطان لعنة أبدية؟ وها هو الله يرد عليهم بالمثال العملي أن هذه الأمة التي تمثل فيها الشيطان لتكون له رمزًا بكل إثمه وشره وتجسده فيهم بكل ما يحمل

(١) الكتبة والفريسيون: هم معلمو الشريعة وكتاب التوراة والمتزمتون في عقيدة اليهود.

من معان بغيضة، تلك الأمة التي ليس لها رادع ولا تستجيب لناصح ولو جاء بمعجزة إلهية، لذلك وجبت عليها اللعنة مثلها في ذلك مثل الشيطان الذي أبى واستكبر أن يطيع أمر الله.

* قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة].

* وتقول التوراة: [بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع؛ لأن أيديكم قد تنجست بالدم، وأصابعكم بالإثم، شفاهكم تكلمت بالكذب، ولسانكم يلهج بالشر، ليس من يدعو بالعدل وليس من يحاكم بالحق. يتكلون على الباطل، ويتكلمون بالكذب، قد حبلوا بتعب، وولدوا إثمًا، فقسوا بيض أفعى، ونسجوا خيوط العنكبوت، الآكل من بيضهم يموت، والتي تكسر تخرج أفعى، خيوطهم لا تصير ثوبًا، ولا يكتسون بأعمالهم، أعمالهم إثم، وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجري، وتسرع إلى سفك الدم الذكي. أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سُبُلاً مُعوجة، كل من يسير فيها لا يعرف سلاما] (إشعياء ٥٩ : ٢-٨).

* وتقول التوراة أيضًا: [لأنه هكذا قال السيد الرب: إني أصعد عليهم جماعة وأسلمهما[1] للجور والنهب. وترجمهما الجماعة بالحجارة، ويقطعونهما بسيوفهم، ويذبحون أبناءهما وبناتهما، ويحرقون بيوتهما بالنار. فأبطل الرذيلة من الأرض، فتتأدب جميع النساء ولا يفعلن مثل رذيلتكما. ويردون عليكما رذيلتكما، فتحملان خطايا أصنامكما، وتعلمان أني أنا السيد الرب] (حزقيال ٢٣ : ٤٦-٤٩).

* ويقول الإنجيل: [ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ! لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين، وتقولون: لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء. فاملأوا أنتم مكيال آبائكم. أيها الحيات أولاد الأفاعي ! كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل

(١) السامرة وأورشليم عاصمتي إسرائيل ويهوذا.

إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة، لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض، من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح] (إنجيل متى ٢٣: ٢٩ – ٣٥).

عقيدة اليهود وثنية من البداية للنهاية

قام كتبة التوراة أثناء وبعد السبي البابلي، بإغلاق الأضواء تمامًا على كل الحقبة التي قضاها بنو يعقوب (إسرائيل) في مصر، وتلك فترة طويلة قدرها كاتبوهم بـ ٤٣٠ سنة أي أكثر من أربعة قرون، فلم تذكر لنا التوراة أي معلومات مباشرة عن تلك الحقبة من تاريخ بني إسرائيل، وخاصة أن تلك الفترة عاشوها بين شعب معاد كما تدل أدبياتهم.

وهذا أمر مثير للشك والريبة، وخاصة أن كاتبي التوراة كانوا بارعين في صياغة وتخصيص فصولاً كاملة في أمور تجهيز وطهو ذبائح القرابين، ومقادير الزيت والملح المطلوبة لصنع خبز التقدمة القرباني وما إلى ذلك من دقائق الأمور، ويستطيع قارئ التوراة أن يصف هؤلاء الكتبة بأنهم كتابًا للأنساب في فروع الملوك والقادة والكهنة.

فهل يمكن سقوط ذكر أية إشارة تختص بأكثر من أربعة قرون من عمر هذا الشعب حسب قولهم بدون قصد أو سوء نية مبيتة لإخفاء الحقيقة؟

وهل يعقل لذي لب أن يغفل كاتبو التوراة عن ذكر اسم عدوهم المحوري الأعظم، فرعون الخروج، والذي له مكانة في ذاكرة اليهود تفوق وتتقدم عن مكانة أدولف هتلر وحزبه النازي في عصرنا الحديث؟

ومن الغريب جدًا وجود أسماء فراعنة مصريين أقل مكانة وتأثيرًا في تاريخهم من فرعون الخروج مثل: شيشنق وخفرع ونخاو في توراتهم. بل ومن المثير للسخرية أن هذا الكتاب لم يُغفل ذكر شجرة أنساب مطولة للمغنين وضاربي الصاجات على باب الهيكل، مما يدعو إلى تحرك الذهن إلى حتمية وجود مؤامرة من قبل كاتبي التوراة لإخفاء حقائق معينة أريد بها أن تطمس إلى أبد الآبدين.

البعل هو إله إسرائيل الدائم

لعله من المنطقي أن نحاول تلمس عقيدة بني إسرائيل قبل دخولهم إلى مصر في زمن المجاعة عندما كان يوسف عليه السلام وهو السبط الثاني عشر لبني إسرائيل وكان هو الفرد الوحيد من بني إسرائيل المقيم في مصر، ودون علم باقي الأسباط الإحدى عشر بل ويعقوب أبو الأسباط نفسه أنه يوجد هناك.

ثم نحاول بعد ذلك أن نتلمس تلك العقيدة بعد خروجهم من مصر، وكلاهما – عصر ما قبل الدخول وعصر ما بعد الخروج من مصر – له شواهد مدرجة في التوراة.

في البداية .. وفدت عشائر العبرانيين تحت قيادة إبراهيم عليه السلام من بلاد ما بين النهرين وبالتحديد من أور الكلدانيين مرورًا بحاران إلى أن وصل إلى شكيم ومنها إلى بلوطة مورة في الأراضي الكنعانية وهي الرحلة التي وصفتها التوراة[1].

ومناطق ما بين النهرين هذه (أور الكلدانيين) من المناطق الموغلة في عبادة الأصنام المتنوعة، وكذلك الأجرام السماوية بكل أشكالها، وظل العبرانيون يتنقلون ما بين مناطق الشام، وكنعان، ومصر، تحت ضغوط بيئية أو حربية.

وفي الواقع فإن التوراة تفرض تعتيمًا مقصودًا على المعتقدات الدينية في تلك الحقبة، إلا أنها ترسم صورة بكل ما تحتويه البدوية من مكر وخداع ومادية وانتهازية، مما يتضح وبجلاء في رسمها لصورة يعقوب (إسرائيل)، ذلك الرجل الذي رأى الله (يهوه) في سن كبير، في قصة حلم السلم السماوي، الذي تصعد وتنزل عليه الملائكة، والرب نفسه واقفًا في أعلاه، بنفس الصورة التي ارتآها المؤرخون انعكاسًا لصورة مباني بابل الحلزونية[2] الشاهقة، التي كان يصعد عليها الكهنة لرؤية الإله وخدمته، ثم بعد ذلك [وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودًا، وصب زيتًا على رأسه ودعا اسم ذلك المكان «بيت إيل»] (التكوين ٢٨: ١٨)، ثم نذر هناك أن يتخذ الله إلهًا بشرط أن يوفقه في مساعيه التي أخذت أعوامًا كثيرة قائلاً: [إن كان الله

(١) انظر الخريطة التي توضح رحلة خروج إبراهيم من أور الكلدانيين إلى كنعان وهي موجودة بالكتاب المقدس النسخة العربية المترجمة عن اللغات الأصلية.

(٢) المسماة زيجورات بابل.

معي، وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه، وأعطاني خبزًا لآكل وثيابًا لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبي، يكون الرب لي إلهًا، وهذا الحجر الذي أقمته عمودًا يكون بيت الله، وكل ما تعطيني فإني أعشره[1] لك] (تكوين ٢٨: ٢٠-٢٢).

وهكذا نرى بوضوح فكرة الأنصاب الحجرية التذكارية منطبعة في عقيدة بني إسرائيل، مما ظهر في أفعال يشوع بن نون بعد هذه الواقعة بقرون عددية، وكان قائدًا لبني إسرائيل في حروب كنعان، عندما أقام نصبًا حجريًا مكون من اثنى عشر حجرًا عند عبوره نهر الأردن، ونقش شريعة موسى عليها، وبنفس الأسلوب الذي كانت تنقش به صلوات الآلهة على جدران المعابد المصرية وغيرها.

وهناك حادثة أخرى في قصة يعقوب التوراتية ذات مغزى هام في نقطتنا محل البحث، وهي حادثة سرقة قافلة يعقوب لأصنام خاله لابان الذي كان قاطنًا بمنطقة حاران والتي كان إبراهيم عليه السلام قاطنًا فيها أيضًا لفترة طويلة، تقول التوراة عن راحيل ابنة لابان وزوجة يعقوب: [وكانت راحيل قد أخذت الأصنام وأخفتها في رحل الجمل وجلست عليها] (تكوين ٣١ : ٣٤)، وهكذا فإن عبادة الأصنام كانت تقليدًا متوارثًا.

وأود هنا أن أذكر رد فعل لابان صاحب الأصنام المسروقة عندما طارد يعقوب وأسرته بعد أن هربوا فكاكًا منه، وقبل اللحاق بيعقوب حدث أمر يجعل المئات من علامات الاستفهام تلقي بظلالها على الإله التوراتي (يهوه) الذي يتجلى بروحه على المؤمن به والكافر به على حد سواء.

فلابان صاحب الأصنام قد أتاه خبر هروب يعقوب بعد ثلاثة أيام، [فأخذ إخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام، فأدركه في جبل جلعاد. وأتى الله إلى لابان الأرامي في حلم الليل وقال له: «احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر» فلحق لابان يعقوب ...] (تكوين ٣١: ٢٣ – ٢٥). وكان يعقوب قد استقر في الجبل ونصب خيمته، فالتقى الاثنان وكانت بينهما محاجة أقل ما توصف به هي السذاجة؛ حيث إن لابان صاحب الأصنام عليه أن يفعل أحد أمرين: إما أن يكون مؤمنًا بالإله الذي أتاه ليلاً وحذره من

(١) أي أخرج منه عشرة بالمائة.

أن يكلم يعقوب أصلاً سواء بالخير أو بالشر، وإما أن يكون كافرًا بهذا الإله ولم يُجد معه تحذيره شيئًا ويطلب بالقوة الأصنام التي يعبدها، ونستحضر هنا النص التوراتي: [وقال لابان ليعقوب: «ماذا فعلت، وقد خدعت قلبي، وسقت بناتي كسبايا السيف؟ لماذا هربت خفية وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيعك بالفرح والأغاني، بالدف والعود، ولم تدعني أقبل بني وبناتي؟ الآن بغباوة فعلت! في قدرة يدي أن أصنع بكم شرًا..] (تكوين ٣١: ٢٦-٢٩).

وهنا يظهر جليًا حيرة لابان الأرامي حمى يعقوب حيث كلمه بشدة في أول السياق ثم عاتبه ثم شد عليه ثانية بحدّة تصل إلى التهديد وكأنه مترقب رد فعل الإله الذي رآه في حلم الليل والذي نهاه صراحة وحذره من أن يكلم يعقوب على الإطلاق بخير أو شر على حد سواء، وها هو لابان لا يبالي بهذا التهديد الإلهي. فاستطرد كلامه قائلا: [...ولكن إله أبيكم كلمني البارحة قائلا: احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر] (تكوين ٣١ : ٢٩)، ويظهر في طيات كلام لابان أنه عمل حساباً أيما حساب لإله يعقوب وأبيه، ثم يعود فتتخبط عقيدته مستطردًا: [والآن أنت ذهبت لأنك قد اشتقت إلى بيت أبيك، ولكن لماذا سرقت آلهتي؟!!!] (تكوين ٣١: ٣٠). ويتضح من هذه النبرة أن لابان عاد لغضبه الأول وكفره بالإله الذي أتاه في حلم الليل على حد تعبير التوراة ذاتها. وظل يبحث عن الأصنام آلهته، وانتهى به الحال أنه لم يجدها؛ لأن راحيل قد خبأتها في حداجة الجمل وجلست عليها، ولم تفسح الطريق لأبيها لابان كي يفتش ويبحث في المكان بحرية، مبررة فعلها: [وقالت لأبيها: «لا يغتظ سيدي أني لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن علي عادة النساء»] (تكوين ٣١: ٣٥). وأترك هذه الفقرة بكل ما فيها من السذاجة لتقدير القارئ الكريم.

عود على بدء .. فبعد الصراع والمشادات الكلامية والعتاب النهائي بين لابان ويعقوب اقترح لابان على يعقوب قائلا: [فالآن هلم نقطع عهدًا أنا وأنت، فيكون شاهدًا بيني وبينك. فأخذ يعقوب حجرًا وأوقفه عمودًا، وقال يعقوب لإخوته: «التقطوا حجارة» فأخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرجمة] (تكوين ٣١: ٤٤-٤٦).

أما عن الألفاظ العهدية التي قالها الاثنان لكي يقطعا على نفسيهما عهدًا كل منهما أمام الآخر فتقول التوراة: [«ليراقب الرب بيني وبينك حينما نتوارى بعضنا عن بعض. إنك لا تذل بناتي، ولا تأخذ نساء على بناتي، ليس إنسان معنا. انظر، الله شاهد بيني وبينك». وقال لابان ليعقوب: «هو ذا هذه الرجمة، وهو ذا العمود الذي وضعت بيني وبينك. شاهدة هذه الرجمة وشاهد العمود أني لا أتجاوز هذه الرجمة إليك، وأنك لا تتجاوز هذه الرجمة وهذا العمود إليّ للشر. إله إبراهيم وآلهة ناحور، آلهة أبيهما، يقضون بيننا» وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحاق. وذبح يعقوب ذبيحة في الجبل ودعا إخوته ليأكلوا طعامًا، فأكلوا طعامًا، وباتوا في الجبل] (تكوين ٣١: ٤٩ – ٥٤).

وهنا وأمام هذا الخلط في ماهية الإله، يتحتم على كاتبي التوراة وكاتبيهم ومؤرخيهم وكهنتهم وحاخاماتهم أن يجيبوا على تلك الأحجية: هل الإله هو من تجلى ليعقوب ولابان في حلم الليل على حد سواء؟ هذا الإله الذي لم يتخذ موقفًا إيجابيًا تجاه لابان عندما عصى أمره الذي أمره به في الحلم . أم هو الرجمة؟ أم هو العمود الذي نصبه يعقوب ليكون شاهدًا على العهد الذي قطعه لابان ويعقوب على نفسيهما كل تجاه الآخر؟ أم هو هيبة إسحاق المتمثلة في بياض شعر رأسه ولحيته؟ ومن هو في هؤلاء يكون إله إبراهيم الذي أقسم به لابان في قطعه العهد على نفسه؟ ومن هو الإله الذي قام يعقوب بالذبح لأجله في الجبل، هذا الذبح الذي كان بمثابة التوقيع على هذا العهد المبرم بينه وبين لابان؟

***

نعود لقولنا من قبل أن عبادة الأصنام كانت تقليدًا متوارثًا قبل يعقوب ذاته، واستمر هذا التقليد زمنًا طويلاً في حياة يعقوب. حتى بعد أن استقر يعقوب في كنعان أوردت التوراة: [فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه: «اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم. ولنقم ونصعد إلى بيت إيل، فأصنع مذبحًا لله الذي استجاب لي في يوم ضيقتي، وكان معي في الطريق الذي ذهبت فيه». فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي في أيديهم والأقراط التي في آذانهم، فطمرها يعقوب تحت البطمة التي عند شكيم] (تكوين ٣٦: ٢-٤).

وهكذا، ظلت عقيدة بني إسرائيل لا تملك تصورًا للإله في صورته المجردة والمنزهة عن التجسيد، ذلك الإله الذي لا يتجسد إلا في بقاع معينة عند الأصنام وركام الأحجار والأعمدة المنصوبة والمعابد ومنطقة الذبح بصفة خاصة حيث تقديم الذبائح المشوية له والخبز والخمر والبخور حتى يتلذذ بتلك الروائح والتي أطلقت عليها التوراة في الكثير من المواضع (رائحة سرور للرب) أو (رائحة رضا للرب)، وعمومًا فإن فكرة رضا الرب منتحلة من العقيدة المصرية القديمة، ولا تزال الكنائس تقوم بإطلاق البخور أمام المذابح أثناء إجراء القداس، ولا زال المصريون المسلمون يتمسكون بتلك العادة بعد آلاف السنين وخاصة يوم الجمعة لطرد الأرواح الشريرة وحلول البركة بالمسكن، ولا يزال أهل كثير من الأديان القديمة مثل الهندوس والبوذيين يقومون بها أمام أنصاب الآلهة.

ومن الغريب أن المصريين القدماء وقبل إخناتون لديهم تصور مجرد للإله، الذي لا يماثله شيء في الأرض والسماء، مما لا تزال تفتقده الشريعة التوراتية العبرانية حتى الآن، والتي تتمسك بمقولة تعطل الشريعة ما دام الهيكل لم يُبن في أورشليم. وها هم ينسبون لآبائهم وأنبيائهم يعقوب ويوسف أنه تم تحنيطهم ودفنهم بالطريقة المصرية القديمة، والتحنيط كما نعلم هو ركن رئيسي في العقيدة المصرية القديمة. ونحن لا نستغرب غزو هؤلاء القوم فكريًا في كل مكان أو محطة يحلون بها، وخاصة أن عقيدتهم ذات أصول وثنية.

هذه هي اللمحات الخاطفة التي نستطيع من خلالها أن نستدل على عقائد بني إسرائيل قبل دخولهم مصر على يد يوسف عليه السلام. فالأب الأكبر إبراهيم تزوج من أخته من أبيه سارة – كما ادعوا – وهذا الفعل ملعون في الشريعة التوراتية وفي شرائع العبرانيين أنفسهم، وهو لا يتورع من تقديم زوجته لفرعون مصر حفاظًا على حياته، وتكرار تلك الفعلة مع أبيمالك ملك فلسطين، ويطرد ابنه البكر وأمه ليلاقوا الموت في صحراء جدباء لا زرع فيها ولا ماء، استجابة لغيرة زوجته العجوز سارة، وقام إسحاق بإنكار زوجته في أرض أبي مالك وفضل أن يتركها لنزوات الكنعانيين لخوفه على حياته، ثم يأتي بعده يعقوب (إسرائيل = مصارع الرب) وكان قد غلب الرب لذلك سمي بهذا الاسم، وكان محتالاً ومخادعًا؛ خدع أباه وخدع أخاه وخدع خاله المخادع أيضًا لابان في ماله وبناته، ويعقوب هذا قد سلب امتيازات البكورية وحقوقها حسب الفكر

العبراني من أخيه الأكبر عيسو، وطبق نفس القانون في أولاده باستبعاد الابن البكر رأوبين وإعطاء ميراث البكورية وامتيازاتها ليوسف، وكرر نفس الفعلة في أبناء يوسف فقدم إفرايم الأصغر على أخيه البكر منسى.

ورأوبين الابن البكر ليعقوب (إسرائيل) ضاجع زوجة أبيه، تقول التوراة على لسان يعقوب (إسرائيل) قائلاً لبنيه قبل أن توافيه المنية: [اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب، واصغوا إلى إسرائيل أبيكم: رأوبين، أنت بكري، قوتي وأول قدرتي، فضل الرفعة وفضل العز. فائرًا كالماء لا تتفضل؛ لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنسته، على فراش صعد] (تكوين ٤٩: ٢-٤).

ثم جاء يهوذا بن يعقوب فضاجع كنته ثامار (زوجة ابنه)، وأنجب منها فارص وزارح اللذين أصبحا رأس النسل الملكي الذي جاء منه داود وسليمان بل والمسيح.

هذه باختصار الملامح الوثنية لأفراد هذا المجتمع الرعوي الذي يحيا فقط على ما يستطيع سلبه من الآخرين. ومن هذا الحطام جاء الأحبار والكهنة بمحاولة صياغة تشريع أخلاقي ونسبوها إلى الله عز وجل.

والواقع أن أهم الأصنام التي كانت تعبد في منطقة حاران وكنعان كان هو الإله المتوحش (ملكوم) بجانب الإله (بعل)، ذلك الإله الذي تقتضي عبادته تقديم القرابين البشرية وذبح الأبناء ثم إحراقهم عند قدميه، وهذا هو الإله الذي تعلقت قلوبهم به، فحملوه معهم وفي صدورهم وقت دخولهم إلى مصر، وفي مصر تم توحيد هذا (البعل) بإله الشر في العقيدة المصرية (الإله ست)، ليخرجوا في النهاية بصورة إله عنيف شرير ودموي هو الإله (سوتخ) الذي عبده الهكسوس (ملوك الرعاة) وملوك الهكسا أي ٦ باليونانية وأصحاب النجمة السداسية الهيكساميرون، واتخذوه رمزًا لهم في عاصمتهم (أواريس)، وكان إلهًا غريبًا يثير الحقد في قلوب المصريين، ثم حملوه في أيديهم وفي قلوبهم وعبدوه طوال حقب تاريخهم المعروف إما بصورة مباشرة، وإما عبدوه بعد مزجه بميراث أنبيائهم ورسلهم المبعوثين من الله سبحانه وتعالى، ليخرجوا بعد ذلك بصورة الإله (إيل ويهوه وألوهيم) والتي لا تختلف في كثير من ملامحها عن صورة البعل كما سنوضح فيما بعد.

على الرغم من أن العبرانيين الهكسوس قد حملوا معهم عند دخولهم إلى مصر إلههم الوحشي (بعل)، بكل طقوس عبادته المغرقة في الوثنية، إلا أنهم أصبحوا في أمس الحاجة لتطوير الصورة الفجة والفظة لهذا الإله؛ لكي يستمر في الحياة، وسط زخم الثقافة الدينية المصرية القديمة، والتي تتحدى أفكارهم العقائدية البدائية وتحيط بهم، فكان عليهم اختيار إله من الآلهة المصرية ويكون قريبًا في الشبه لمعبودهم الشرير (البعل) فلم يجدوا وسط هذه الآلهة إلا الإله (ست) إله الشر الذي قتل الإله (أوزير) في عقائد المصريين، وهو بالأحرى ما نطلق عليه حالياً الشيطان والمشتق من الفعل (شط)، وساعدهم على هذا الاختيار أن الإله (ست) كان هو رمز المقاطعات الشمالية الشرقية من مصر المتاخمة لأرض كنعان التي كانوا يقطنون بها، فخرجوا بنتيجة نهائية من مزج هذين الإلهين هي الإله (سوتخ)، ذلك المزج وتلك الصورة الفجة لم يتقبلها المصريون القدماء لفرط شره، على عكس الحال عندما تقبلوا مزج آلهتهم ودياناتهم بآلهة الإغريق في العصر البطلمي، ومن ثم الدين المسيحي، ثم تلاه الإسلام، وهذا المزج بين المعتقدات الغريبة عن المصريين القدماء تم قبوله بصورة سلسة للغاية فيما بعد.

ربما لتشابه فكرة الأقنوم الإلهي الناسوتي أو ابن الله مع عقائد المصريين التي كانت تعتبر أن الفرعون هو أقنوم إلهي أو ابن لله له صفتي الناسوت واللاهوت في آن واحد، هذا بجانب عقيدة الزهد والتسامح المسيحية التي لم تختلف كثيرًا عما كان راسخًا في أذهان المصريين، كما أن الإسلام كدين وافد على مصر، جاء يرفع لواء (العدل والحق)، مما لاقى صدى في نفوس المصريين الذي ظلوا لقرون طويلة يرون أن (ماعت) أو (العدل والحق) هو من أجل القيم التي ينبغي أن تقوم عليها الحياة.

أما هذا الإله الغريب الذي يحمل رأس الحمار فظل غريبًا منبوذًا من أهل البلاد، وهنا أرى لزامًا عليّ أن أورد قصة في التوراة وهي من وحي كاتبي التوراة، ذلك الوحي الذي لم يأت من فراغ، بل أتى من عقيدة راسخة في صدور القوم، حتى أصروا أن يضعوا مثلاً حيالها في كتابهم المقدس.

وهي قصة أو حادثة غريبة متفردة لم تأت التوراة بمثلها، وهي قصة تتحدث عن رجل قديس مثله مثل الأنبياء، من يباركه فهو مبارك ومن يلعنه فهو ملعون، هذا الرجل هو (بلعام بن بعور). فقد أرسل إليه بالاق بن صفور ملك موآب في زمن خروج بني إسرائيل من مصر رسلاً ليدعوه قائلا: [هو ذا شعب قد خرج من مصر. هو ذا قد غشى وجه الأرض، وهو مقيم مقابلي. فالآن تعال والعن لي هذا الشعب؛ لأنه أعظم مني، لعله يمكننا أن نكسره فأطرده من الأرض، لأني عرفت أن الذي تباركه مبارك والذي تلعنه ملعون] (عدد ٢٢: ٥-٦). ومكث رسل بالاق بن صفور عند بلعام لكي ينظروا ماذا يرد عليهم بعدما قال لهم: [بيتوا هذه الليلة فأرد عليكم جوابًا كما يكلمني الرب] (عدد ٢٢: ٨). وتقول التوراة: [فأتى الله إلى بلعام وقال: «من هم هؤلاء الرجال الذين عندك»؟ فقال بلعام لله: «بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إليّ يقول: هو ذا الشعب الخارج من مصر قد غشى وجه الأرض. تعال الآن العن لي إياه، لعلي أقدر أن أحاربه وأطرده». فقال الله لبلعام: «لا تذهب معهم ولا تلعن الشعب لأنه مبارك»] (عدد ٢٢: ٩- ١٢).

وأبلغ بلعام بن بعور رسل بالاق بما قال له الرب، بأنه لم يسمح له بالذهاب معهم، وأبلغ الرسل بالاق بما قاله بلعام، فعاد بالاق بإرسال الرسل وأخذ يحبب إليه الأمر بأنه لو أتى إليه سوف يكرمه إكرامًا عظيماً، هذا مقابل أن يلعن بلعام شعب إسرائيل، فامتنع بلعام هذا عن الذهاب إلى بالاق ولو أعطاه بالاق ملء بيته ذهبًا وفضة، ولكن علق الأمر على تنبؤه بعودة الله في هذه الليلة فينظر ماذا يقول له الرب هذه المرة، وكان من العجيب أن الرب هذه المرة أتاه ليلاً وقال له: [إن أتى الرجال ليدعوك فقم اذهب معهم، إنما تعمل الأمر الذي أكلمك به فقط] (عدد ٢٢: ٢).

هكذا وبدون مبرر غير هذا الإله رأيه من النقيض إلى النقيض، واستطرد كاتبو التوراة القصة بالآتي: [فقام بلعام صباحًا وشد على أتانه[1] وانطلق مع رؤساء موآب، فحمى غضب الرب لأنه منطلق، ووقف ملاك الرب في الطريق ليقاومه وهو راكب على أتانه وغلامه معه. فأبصرت الأتان ملاك الرب واقفًا في الطريق وسيفه مسلول في يده، فمالت الأتان عن الطريق ومشت في الحقل. فضرب بلعام الأتان ليردها إلى

(١) الأتان: أنثى الحمار.

الطريق. ثم وقف ملاك الرب في خندق للكروم، له حائط من هنا وحائط من هناك. فلما أبصرت الأتان ملاك الرب أيضًا ووقف في مكان ضيق حيث ليس سبيل للنكوب يمينًا أو شمالاً. فلما أبصرت الأتان ملاك الرب، ربضت تحت بلعام. فحمى غضب بلعام وضرب الأتان بالقضيب. ففتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام: «ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات؟». فقال بلعام للأتان: «لأنك ازدريت بي. لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك». فقالت الأتان لبلعام: «ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم؟ هل تعودت أن أفعل بك هذا؟» فقال: «لا»] (عدد ٢٢: ٢١-٣٠).

وأترك للقارئ التعليق على هذه الفقرات الفلكلورية. وما لها من قدسية في ذهن كاتبي التوراة حتى وضعوها تحت عنوان صريح هو [أتان بلعام] في النسخة التفسيرية. ولم يضعوا عنوان آخر ليمثل غضب الله عند انطلاق بلعام في الصباح وهو الذي أمره بهذا قائلاً: [إن أتى الرجال ليدعوك فقم واذهب معهم، إنما تعمل الأمر الذي أكلمك به فقط] (عدد ٢٢: ٢٠). ولم يضعوا عنوانًا للملاك الذي سجد له بلعام عندما كشف الرب عن عيني بلعام فأبصر ملاك الرب واقفًا في الطريق وسيفه مسلول في يده، فخر ساجدًا على وجهه، مما شاهده من هول مطلع هذا الملاك المحارب الذي لا شبيه له ولا يستطيع أي بشر كائنًا من كان أن ينظره بسهولة، وهي بالقطع صورة مرعبة تلك التي وصفها كاتبو التوراة، أما عن نطق الأتان فهو شيء طبيعي جدًا ويحدث كل يوم أن الأتان تحدثه وهو يحاورها، دون أدنى مشكلة ولا حتى استغراب. هذا إذا وضعنا في الحسبان ما لعقيدة (سوتخ) الإله الذي يحمل رأس حمار. وما تتطلبه العبادة من دعاء وصلاة وتقديم قرابين إلى آخره وطقوس وتقدمات ربما تحدث يوميًا وبشكل مباشر مع رأس الحمار الحجري (سوتخ) معبودهم المفضل ومن المثير للدهشة هو غضب الرب على بلعام وخاصة أنه الذي أمره في المرة الثانية بأن يقوم معهم إذا أتوه مرة أخرى.

نعود لنقطتنا محل البحث، وهي أن هذا الإله المنبوذ من المصريين تحول تدريجيا عن طريق مزجه عقائديًا مع ديانة المصريين، إلى صورة الإله المحارب المتمثل في صورتي إله النار من جانب وإله العاصفة من جانب آخر، وهذه الصورة مطابقة لإله العبرانيين التوراتي (يهوه).

وهناك في مصر يتم إعلان الله للعبرانيين أو توليته إلهًا واحدًا طوال قرون مديدة والتي قضاها بنو إسرائيل في مصر، جاء في التوراة [ثم كلم الله موسى وقال له: «أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي (يهوه) فلم أعرف عندهم. وأيضًا أقمت معهم عهدي: أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها. وأنا أيضًا قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون، وتذكرت عهدي. لذلك قل لبني إسرائيل: أنا الرب. وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة، وأتخذكم لي شعبًا، وأكون لكم إلهًا، فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين. وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب. وأعطيكم إياها ميراثًا أنا الرب». فكلم موسى هكذا بني إسرائيل، ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس، ومن العبودية القاسية] (خروج ٦: ٢-٩).

ونستنتج مما سبق أن بني إسرائيل طوال وجودهم في مصر لم يكونوا قوم توحيد وعقيدة، بل كانت عبادتهم إلى شيء آخر غير الله تعالى، أما الرب الذي تم إعلانه لهم، فكان إلهًا محاربًا عنهم، وهكذا ففكرة المخلص (المسيا) ثم فكرة المسيح المحارب، لها جذور تمتد إلى الإله العبراني (يهوه) ذاته، وهو الأب الفعلي لهذا الشعب المختار، الذي قرر في توقيت ما أن يترك الزعامة السياسية لهذا الشعب ليتولاها ملك (وكان هذا القرار الإلهي على زمن شاول أو طالوت). كما قرر أيضًا أن يترك مهمة تخليص الشعب من يد أعدائه حربًا لنائب بشري له، وهو ما أطلق عليه في حقبة السبي البابلي لفظ (المسيح)، ويبدو من كتابات إشعياء أنه كان يعتقد أنه هو ذاك المسيح.

أما عن الشيء الذي عبدوه فتورد التوراة فقرات أخرى، فلنراقبها بدقة. فإن يشوع بن نون وهو تلميذ موسى عليه السلام وكان قائدًا لبني إسرائيل في حقبة التيه لأرض كنعان [فالآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة، وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم في عبر النهر وفي مصر، واعبدوا الرب] (يشوع٢٤: ١٤).

ويزيد الأمر توضيحًا ما قاله أحد الأنبياء المتأخرين وهو حزقيال: [وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: في يوم اخترت إسرائيل ورفعت يدي لنسل بيت آل يعقوب،

وعرفتهم نفسي في أرض مصر، ورفعت يدي لهم قائلاً: أنا الرب إلهكم في ذلك اليوم رفعت لهم يدي لأخرجهم من أرض مصر إلى الأرض التي تجسستها لهم، تفيض لبنًا وعسلاً، هي فخر كل الأراضي، وقلت لهم: اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه، ولا تتنجسوا بأصنام مصر. أنا الرب إلهكم. فتمردوا عليّ ولم يريدوا أن يسمعوا لي، ولم يطرح الإنسان منهم أرجاس عينيه، ولم يتركوا أصنام مصر. فقلت: إني أسكب رجزي عليهم لأتم عليهم سخطي في وسط أرض مصر] (حزقيال ٢٠: ٥-٨).

إذن فالقوم كانوا يعبدون آلهة شرق الفرات عبر النهر التي يترأسها البعل. ومزجوها عقائديًا مع آلهة مصر، وظلوا على تلك العبادة الممزوجة بين آلهة شرق الفرات وآلهة مصر حتى يومهم الأخير في مصر.

ومن العجيب أن بني إسرائيل قد حددوا موقعًا افتراضيًا للعبور وأسموه «فم الحيروث» ويعني (فم الحرية)، وهذا الموقع حددته التوراة كالتالي: [بين مجدل والبحر أمام بعل صفون مقابله تنزلون عند البحر] (خروج ١٤: ٢)، وتقول التوراة أيضًا: [فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم. جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجنوده، وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث، أمام بعل صفون] (خروج ١٤: ٩).

وهكذا فقد اتفق بنو إسرائيل وقت خروجهم من مصر أن تكون نقطة الالتقاء المعروفة لهم مسبقًا في الناحية المقابلة من البحر الأحمر عند صنم الإله بعل ذاته.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفسر ما جاء في التوراة على لسان موسى عند خطابه لفرعون طالبًا منه خروج بني إسرائيل من مصر كما نصت عليه: [فدعا فرعون موسى وهارون وقال: «اذهبوا اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض». فقال موسى: «لا يصلح أن نفعل هكذا؛ لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا. إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا؟ نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا»] (الخروج ٨ : ٢٥-٢٧).

ومن المعلوم لدينا أن المصريين القدماء يقدمون القرابين للآلهة من بقر وغنم وخمر وخبز وبخور. ومن المعلوم أيضًا لقارئ التوراة أن العبرانيين قد دأبوا على تقديم

تلك القرابين بعينها للإله. ومن تلك المعلومات يثار التساؤل: ما وجه الرجس الذي كان يعنيه موسى في خطابه مع الفرعون في الفقرة السابقة؟ مع الوضع في الاعتبار أن فك أحجيات البرديات المصرية حديثًا أشار إلى تسمية هؤلاء القوم بالأنجاس وذوي الأصول الوضعية والطاعون .. إلى آخر هذه الصفات. ولماذا كان بنو إسرائيل رجسًا لدى المصريين؟

والإجابة هي: أن طقوس العبرانيين الدينية اشتملت على ما اعتقده المصريون رجسًا ونجاسة فوصم العبرانيين جميعهم بذلك.

وفي الواقع فقد أثبت علم الحفريات أن معابد العبرانيين في منطقة شمال شرق الدلتا احتوت على قرابين بشرية تحت الأساس، مما يشير إلى وجود تلك العادة الفظيعة لدى العبرانيين إبان وجودهم في مصر، بل ويشير أيضًا إلى عبادتهم لذلك الإله المتوحش الوثني المسمى (بعل) والذي ثبت تاريخيًا أن أهم طقوس عبادته وغيره من الآلهة الآسيوية هي تقديم القرابين البشرية بالذبح أو الحرق تحت قدميه، وهناك إشارة توراتية إلى هذه القرابين تسمى (قرابين الأساس).

وهناك قصة توراتية توضح لنا تأصل عادة ذبح وإحراق القرابين البشرية عند العبرانيين إرضاءً للإله، وهي قصة (يفتاح الجلعادي)، الذي حلّ عليه روح الرب ودعاه لقتال العمونيين، تقول التوراة: [ونذر يفتاح نذرًا للرب قائلا: «إن دفعت بني عمون ليدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب، وأصعده محرقة] (قضاه ١١: ٣٠ -٣١).

وكانت تلك الضحية هي ابنته الوحيدة العذراء التي لم تعرف رجلاً كما وصفتها التوراة وذبحها، تقول التوراة: [ففعل بها نذره الذي نذر، وهي لم تعرف رجلاً، فصارت عادة في إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة] (قضاه ١١: ٣٩-٤٠).

ومن هذه القصة والتي حدثت بعد دخول بني إسرائيل لفلسطين بزمن طويل جدًا، وبعد تنزل شرائع موسى على بني إسرائيل، تلك الشرائع التي نصت على: [لا

تعمل هكذا للرب إلهك، لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس لدى الرب مما يكرهه، إذا أحرقوا حتى بنيهم وبناتهم بالنار لآلهتهم. كل الكلام الذي أوصيكم به احرصوا لتعملوه، لا تزد عليه ولا تنقص منه] (تثنية ١٢: ٣١-٣٢). نستنتج ماذا كان يعبد يفتاح الجلعادي، الذي وصفته التوراة بأن روح الله تحل عليه، مما يقودنا إلى معرفة الاختلاط الموجود في أذهان العبرانيين وفي كتابهم المحرف بين صورة الإله يهوه وبين الإله بعل.

وقد أدين هذا الفعل من قبل أكثر من نبي توراتي وعلى سبيل المثال:

* تقول التوراة: [.. أما أنتم أولاد المعصية، نسل الكذب، المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل] (أشعياء ٥٧: ٤-٥).

* وتقول أيضًا: [وبنوا مرتفعات توفة التي في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار، الذي لم آمر به ولا صعد على قلبي] (إرميا ٧: ٣١).

* وتقول التوراة: [«فلذلك يا زانية[1] اسمعي كلام الرب: هكذا قال السيد الرب: من أجل أنه قد أُنفق نحاسك وانكشفت عورتك بزناك بمحبيك وبكل أصنام رجاساتك، ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها] (حزقيال ١٦: ٣٥-٣٦).

* وتقول أيضًا: [وقال الرب لي: «يا ابن آدم، أتحكم على أهولة وأهوليبة؟[2] بل أخبرهما برجاساتهما؛ لأنهما قد زنتا وفي أيديهما دم، وزنتا بأصنامهما وأيضًا أجازتا بنيهما الذين ولدتاهم لي النار أكلا لها. وفعلتا أيضًا بي هذا: نجستا مقدسي في ذلك اليوم ودنستا سبوتي. ولما ذبحتا بنيهما لأصنامهما، أتتا في ذلك اليوم إلى مقدسي لتنجساه، فهوذا هكذا فعلتا في وسط بيتي[3]] (حزقيال ٢٣: ٣٦-٣٩).

* وتقول التوراة عن تلك العبادة بطريقة مباشرة: [لما تكلم أفرايم برعدة، ترفع في إسرائيل، ولما أثم ببعل مات. والآن يزدادون خطية، ويضعون لأنفسهم تماثيل

(١) يقصد بالزانية هنا دولة إسرائيل قاطبة.
(٢) أهولة وأهوليبة هما رمزان للسامرة وأورشليم.
(٣) المقصود ببيتي هنا هيكلي.

مسبوكة من فضتهم، أصنامًا بحذاقتهم، كلها عمل الصناع. عنها هم يقولون: «ذابحو الناس يقبلون العجول»] (هوشع ١٣: ١-٢).

ومن كل ما سبق وهو قليل من كثير نستطيع أن نفهم لماذا كانت قرابين العبرانيين رجسًا لدى المصريين الذين علموا مسبقًا ماهية طقوس القرابين في عقائد العبرانيين الوثنية والتي وصمتهم بالنجاسة الكلية في عيون المصريين الذين استضافوهم في مصر.

وأود هنا أن أضع أمام أعين القارئ هذا النص من التاريخ المصري القديم للدكتور سليم حسن[1]: (وعلى أية حال فإن لدينا بعض اللوم الذي نوجهه «إلى سكان شرق الدلتا العبرانيين – الكاتب»، فقد كان سكان هذه المدينة لا يزالون يمارسون العادة الوحشية، وهي تضحية الآدمي ووضعه في ودائع الأساس، وهذه عادة لم تكن متبعة في سائر البلاد. وعلى العكس من ذلك فقد كانوا لا يهتمون بالحيوانات المقدسة، ومن ثم نرى أن الآلهة التي كانت ترسم على المسلات والعمد واللوحات والنقوش البارزة كانت تمثل كلها تقريبًا في صورة آدمية) أهـ.

وهكذا لم يتخل العبرانيون عن أصنام آبائهم وطقوس عبادتها الوحشية، تقول التوراة: [لأنهم لم يصنعوا أحكامي، بل رفضوا فرائضي، ونجسوا سبوتي، وكانت عيونهم وراء أصنام آبائهم. وأعطيتهم أيضًا فرائض غير صالحة، وأحكامًا لا يحيون بها، ونجستهم بعطاياهم إذ أجازوا في النار كل فاتح رحم، لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الرب] (حزقيال ٢٠: ٢٤-٢٦).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العادة المتعلقة بتقديم القرابين الحيوانية والبشرية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ

(١) موسوعة مصر القديمة، د. سليم حسن، ج٨، ص٥٣٤.

﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام].

ولعل تأصل تلك العادات الوحشية في عقائد العبرانيين هي التي تدعو إلى صدور كتاب أو مقال بين الحين والآخر في زماننا المعاصر، يشير إلى توارثها في أجيالهم وتقديسهم لها حتى الآن.

وفي زماننا هذا تتم مراسم أو طقوس الذبح هذه في مناسبات عديدة يهودية أهمها وقفة عيد الفصح، وفطيرته المقدسة التي تحتوي بداخلها دم (الغوييم) أو (الأغيار) أو (غير اليهود). ويتولى أمر تنفيذ هذه الطقوس الحاخامات أنفسهم وبتكتم شديد، ولا يجوز أن يقوم بعملية الذبح إلا (شوحيط) وما أدراك من هو (شوحيط) فهو رجل دين يتقن الذبح بالطريقة الشرعية اليهودية، ولا يلمس الذبيحة أثناء عملية الذبح لئلا تصبح الذبيحة محرمة، ويردد هذا (الشوحيط) دعاء لابد منه قبل الذبح يسمى (بركة الذبح) يقول فيه: (بارك أنت يا رب إلهنا ملك العالم الذي قدستنا بوصاياك وأوصيتنا بالذبح). وبعد تصفية الضحية من الدم، يخلط الدم مع عجينة على شكل فطيرة، وتلك الفطيرة تكون مقدسة جاهزة للأكل، (بالهنا والشفا) باللغة العربية.

تقول التوراة: [ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل، لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا. تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض. كباش وحملان وأعتدة وثيران كلها من مسمنات باشان. وتأكلوا الشحم إلى الشبع، وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتي التي ذبحتها لكم] (حزقيال ٣٩: ١٧-١٩).

ويستخدم الدم البشري في كثير من المناسبات أيضًا مثل استخدامه عند ختان الأطفال، وعند الزواج، واعند اقتراب الوفاة، وفي التاسع من يوليو يوم المناحة على خراب أورشليم وغيرها من المناسبات.

ومنذ سنوات طوال اجتمع الحاخامات في بابل وقرروا أن دماء طفل ضروري لخلاص نفوس اليهود، شريطة أن يكون عمره سبع سنوات على الأكثر، ويفضل أن يكون من الذكور.

وأخيرًا نتساءل: ماذا تبقى لدراكولا مصاص الدماء من شهرة وصيت إذا ما قارناه مع اليهود،؟ فهو يظهر رحيماً ومسكينًا، وخصوصًا أن تهمته: ذبح القرابين البشرية، والدم عمومًا لم تسقط عن اليهود، كما لم يسقطها اليهود أنفسهم أبدًا حتى يومنا هذا، وإلا بماذا يفسر الذي يجري الآن في الأرض المحتلة، التي تحولت إلى مسلخ بشري جماعي يتساقط فيها الأبرياء والضحايا أمام الجزار اليهودي الصهيوني؟! وأيضًا هل ارتفاع عدد الأطفال الشهداء في المواجهات الأخيرة منذ اقتحام ومحاولة شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي المسجد الحرام واشتعال الموقف بين اليهود والفلسطينيين – كان بمحض الصدفة؟ أم أن وراءه قصدية دينية تلمودية؟

الحق أقول لكم إن كل ما يجري هو استنزاف وذبح شرعي يهودي لدماء الأغيار، فهم يروننا بهائم وحيوانات سخرت لتقديمها إلى إلههم المتعطش لسفك الدم.

***

وبالإضافة إلى هذا الجانب المظلم البعيد عن الأضواء من تاريخ العقيدة اليهودية إبان وجود العبرانيين في مصر والتي قدرها مؤرخو اليهود بـ٤٣٠ سنة كما ذكرنا سابقًا، فهناك جانب آخر ويتمثل في عبادة الأجرام السماوية، فقدوم بني إسرائيل من أراضي ما بين النهرين والتي كانت تتخذ من إلهة القمر (عشتاروت)، وإله الشمس (شماش) ونحوها آلهة مبجلة، ثم وفودهم على مصر أرض (تاسوع رع)، أرض المذهب الشمسي في العقيدة (هليوبوليس)، بجانب عبادة الإله (أعح) إله القمر، وبعد ذلك الإله إيزيس في مرحلة لاحقة، قد أثر في عقائد العبرانيين مما جعلهم يشتركون في طقوس عبادة تلك الأجرام، وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك العبادات بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ

قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [الأنعام].

أما عن تلك العبادات في التوراة، فقد أدانها كثير من أنبياء التوراة، تقول التوراة: [في ذلك الزمان: يقول الرب، يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم، ويبسطونها للشمس وللقمر ولكل جنود السماوات التي أحبوها والتي عبدوها والتي ساروا وراءها والتي استشاروها والتي سجدوا لها. لا تجمع ولا تدفن، بل تكون دمنة على وجه الأرض] (إرميا ٨: ١-٢).

وعن اختلاط تلك العبادة بالإله ذاته، تورد التوراة: ["هل قدمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة يا بيت إسرائيل؟ بل حملتم خيمة ملكومكم[1] وتمثال أصنامكم، نجم إلهكم الذي صنعتم لنفوسكم"] (عاموس ٥: ٢٥-٢٧).

وتقول أيضًا: [ولئلا ترفع عينيك إلى السماء، وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء، فتغتر وتسجد لها وتعبدها] (تثنية ٤: ١٩).

وتقول التوراة: [إذا وجد في وسطك في أحد أبوابك التي يعطيك الرب إلهك رجل أو امرأة يفعل شرًا في عيني الرب إلهك بتجاوز عهده، ويذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها، أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء، الشيء الذي لم أوصِ به، وأخبرت وسمعت وفحصت جيدًا وإذا الأمر صحيح أكيد، قد عمل ذلك الرجس في إسرائيل] (تثنية ١٧ : ٢-٤).

وهكذا نرى أن عبادة الأجرام كانت جنبًا إلى جنب من عبادتهم للأصنام والأوثان، ونزداد دهشة عندما نجد ذكر مدن تحمل اسم الآلهة في التوراة كمدينة أون أو بيت أون أو عين شمس مثلاً، تقول التوراة: [على عجول بيت أون يخاف سكان السامرة. إن شعبه ينوح عليه] (هوشع: ١٠: ٥).

(١) ملكوم: إله وثني من آلهة بلاد ما بين النهرين وهو مساو للإله بعل.

وتقول أيضًا: [وتخرب شوامخ أون، خطية إسرائيل] (هوشع ١٠: ٨).

وتقول أيضًا: [فخلص الرب إسرائيل في ذلك اليوم. وعبرت الحرب إلى بيت أون] (صموئيل الأول ١٤: ٢٣). وتقول أيضًا: [وكان تخمهم من جهة الشمال من الأردن. وصعد التخم إلى جانب أريحا من الشمال وصعد في الجبل غربًا، وكانت مخارجه عند برية بيت أون] (يشوع ١٨: ١٢)، وتقول أيضًا: [وامتد من الشمال وخرج إلى عين شمس] (يشوع ١٨: ١٧) وهذه أراضي ضمنت من ضمن أراضي بنيامين، كما ذكرت مدينة عشتاروت ضمن أراضي سبط منسى، وهناك نبوءة لم تتحقق حتى الآن وهي خاصة بتهويد خمس مناطق مصرية. تقول التوراة: [في ذلك اليوم يكون في أرض مصر مدن تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود، يقال لإحداها "مدينة الشمس". في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر، وعمود للرب عند تخمها] (إشعياء ١٩: ١٨-١٩).

وعمومًا فإن الفكر التوراتي لا يفصل بين الملائكة والأجرام السماوية؛ حيث إن كلمة (جند السماء) تشير إلى كليهما في وقت واحد، وبمعنى واحد في مواقع كثيرة، أورد هنا نصًا يشير إلى ذلك الخلط، تقول التوراة: [ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء، وملوك الأرض على الأرض، ويجمعون جمعًا كأسارى في سجن، ويغلق عليهم في حبس، ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون ويخجل القمر، وتخزى الشمس؛ لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم] (إشعياء ٢٤: ٢١-٢٣).

وفي حادثة فريدة من نوعها تغنى بها مؤرخو التوراة وقالوا عنها أنها معجزة إلهية لتأييد شعب الله المختار، وقد حاول بعض مفسري التوراة أن يجدوا لها مبررًا علميًا لكي يضفوا عليها ثوبًا من المنطقية، وعلى ضوء المعطيات العلمية الحديثة تعد هذه القصة ومبرراتها ضربًا من العبث والفكاهة، أو الفكاهة العبثية على أدق تعبير، تقول التوراة في قصة الحرب الدائرة بين بني إسرائيل تحت قيادة (يشوع بن نون)، وبين الأموريين وهم أحد شعوب فلسطين تحت قيادة (أدوني صادق ملك)، يقول النص: [حينئذ كلم يشوع الرب، يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل، وقال أمام عيون إسرائيل: "يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون".

فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوبًا في سفر ياشر؟[1]، فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك يوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب صوت إنسان، لأن الرب حارب عن إسرائيل] (يشوع١٠: ١٢-١٤).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: إن كان المقصود بدوام الشمس هو إطالة زمن النهار حتى يتم النصر لبني إسرائيل، فلماذا كان يدعو يشوع بدوام القمر أيضًا وفي ذات الوقت فوق أرض المعركة؟!

وللإجابة ببساطة أن التصور الوارد في سفر يشوع والمنقول نصًا عن سفر ياشر التوراتي الضائع حتى يومنا هذا، هو في الحقيقة قالب أدبي توراتي استعمله كتبة التوراة تعبيرًا عن البركة أو اللعنة، مثله في ذلك مثل مئات النقوش الفرعونية، التي كانت تشير بثبات (رع) إله الشمس، أو (آمون رع) لاحقًا في السماء فوق الأرض تثبيتًا للفرعون المحارب الذي هو ابن لذات الإله.

وعلى العموم فإن في التوراة نصوصًا متأخرة عن هذا النص زمانيًا، ترينا ثبات هذا التخيل في عقيدة بني إسرائيل بشكل مثير للدهشة، جاء في التوراة تعبير عن اللغة الإلهية بالقول: [ويكون في ذلك اليوم، يقول السيد الرب، أني أغيب الشمس في الظهر، وأقتم الأرض في يوم نور] (عاموس ٨ :٩).

وتقول أيضًا: [لذلك تكون لكم ليلة بلا رؤيا. ظلام لكم بدون عرافة. وتغيب الشمس عن الأنبياء، ويظلم عليهم النهار] (ميخا ٣: ٦). وتقول أيضًا: [الشمس والقمر وقفًا في بروجهما لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك] (حبقوق ٣: ١١). وتقول أيضًا: [ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور. الدراري تنقبض. ويكون يوم واحد معروف للرب. لا نهار ولا ليل. بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور] (زكريا ١٤: ٦-٧). وتقول أيضًا: [لا تكون لك بعد الشمس نورًا في النهار. ولا القمر ينير لك مضيئًا، بل الرب يكون لك نورًا أبديًا. وإلهك زينتك . لا تغيب بعد شمسك، وقمرك لا ينقص؛ لأن الرب يكون لك نورًا أبديًا، وتكمل أيام نوحك] (إشعياء ٦٠ :١٩).

(١) سفر ياشر أحد أسفاره التوراة الضائعة.

والخلاصة .. نستنتج من تلك النصوص أن عقائد هؤلاء القوم إبان وجودهم في مصر كانت خليطًا مشوشًا من عقائد بين النهرين وكنعان ومصر على صورة عبادة الأنصاب والأصنام والأجرام السماوية معًا، وكان كل فرد من العبرانيين يأخذ من تلك العبادات الوثنية بالقدر الذي يراه مناسبًا له، ولم يكونوا على أية ديانة وضعية أو سماوية، أو أي ديانة لها نصيب من التمدن البشري، تقول التوراة في هذا المضمون ما نصه: [لا تعملوا حسب كل ما نحن عاملون هنا اليوم، أي كل إنسان مهما صلح في عينيه، لأنكم لم تدخلوا حتى الآن إلى المقر والنصيب اللذين يعطيكم الرب إلهكم] (تثنية ١٢: ٨-٩)، وهذا النص كان على لسان موسى بعد خروج بني إسرائيل من مصر مباشرة وقبل دخولهم الأرض التي وعدهم بها إلههم (يهوه). وفي نسخة أخرى من التوراة وفي نفس السفر ونفس الفقرات تقول التوراة: [لا يصنع كل واحد منكم ما يستحسنه، لأنكم لم تدخلوا بعد إلى موضع الراحة والميراث الذي يهبه لكم الرب إلهكم] (تثنية ١٢: ٨-٩).

وقد استمرت تلك العقيدة المشوشة المخلوطة بين عبادة الأصنام الحجرية، وعبادة الأجرام السماوية، ملازمة لليهود طوال تاريخهم وحتى نهاية عهد ممالكهم في فلسطين، أي قبل دخولهم مصر، وأثناء وجودهم في مصر، وبعد خروجهم من مصر. تقول التوراة ما نصه: [ثم قال لي: "أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام، كل واحد في مخادع تصاويره؟ لأنهم يقولون: الرب لا يرانا! الرب قد ترك الأرض!". وقال لي: "بعد تعود تنظر رجاسات أعظم هم عاملوها". فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال، وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز[1]. فقال لي: "أرأيت هذا يا ابن آدم؟ بعد تعود تنظر رجاسات أعظم من هذه. فجاء بي إلى دار بيت الرب الداخلية، وإذا عند باب هيكل الرب، بين الرواق والمذبح، نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق، وهم ساجدون للشمس نحو الشرق] (حزقيال ٨: ١٢-١٦).

وأختم نقطتنا محل البحث بقول إلههم نفسه (يهوه) والذي أيقن تمامًا أن هذا الشعب عنيد ومتمرد دائم الارتداد وصلب القلب، والذي كان على الرغم مما فعله

(١) تموز إله الخصب والنماء.

لهم من نصرة دائمة وعمل المعجزات من أجلهم، وعلى الرغم من حلوله عليهم حتى سمعوا صوته مرارًا بأنفسهم، وعلى الرغم من كتابته لوحي الشريعة بيده، وعلى الرغم من إعطائه أرض تفيض لبنًا وعسلاً تجسس بنفسه لكي يورثها لهم بعد استكشافها. فتقول التوراة على لسان (يهوه) الذي أغضبه فعل بني إسرائيل: [فأنا أيضًا أُعامل بالغضب، لا تشفق عيني ولا أغفو، وإن صرخوا في أذني بصوت عال لا أسمعهم] (حزقيال: ٨-١٨).

استمرار العبادة الوثنية بعد الخروج من مصر

وما إن وطأت أقدام بني إسرائيل الحدود المصرية، فمع الخطوة الأولى عند مرورهم أمام بعل صفون طالبوا موسى عليه السلام باتخاذ البعل إلهًا، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف]. وهكذا ارتد بنو إسرائيل مع الخطوة الأولى عندما طالبوا بعبادة البعل إلههم الوثني، وهذه الحادثة وقعت قبل صنع العجل الذهبي الذي صنعوه فقط انتهازًا لغيبة موسى عليه السلام عنهم، وعمومًا فبنو إسرائيل قبل حادثة العجل الذهبي داوموا على التذمر على الله والتمرد على موسى، فامتنعوا عن القتال: تقول التوراة: [لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا، وعصيتم قول الرب إلهكم، وتمرمرتم في خيامكم وقلتم: الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا. إلى أين نحن صاعدون؟ قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين: شعب أعظم وأطول منا. مدن عظيمة محصنة إلى السماء، وأيضًا قد رأينا بني عناق هناك. فقلت لكم: لا ترهبوا ولا تخافوا منهم. الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم حسب كل ما فعل معكم في مصر أمام أعينكم] (تثنية ١: ٢٦-٣٠).

ثم قاتلوا بدون أمر الرب، تقول التوراة: [فأجبتم وقلتم لي: قد أخطأنا إلى الرب نحن نصعد ونحارب حسب كل ما أمرنا الرب إلهنا، وتنطقتم كل واحد منكم بعدة حربه، واستخففتم الصعود إلى الجبل. فقال الرب لي: قل لهم: لا تصعدوا ولا تحاربوا، لأني لست في وسطكم لئلا تنكسروا أمام أعدائكم. فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتم قول الرب وطغيتم، وصعدتم إلى الجبل] (تثنية ١: ٤١-٤٣). كما تذمروا من

الجوع والعطش، ثم تذمروا من المن والسلوى، تقول التوراة: [وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين: "لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية؟ لأنه لا خبز ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف[1]". فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة، فلدغت الشعب، فمات قوم كثيرون من إسرائيل] (عدد٢١: ٥-٦)، كما تآمروا على موسى وهارون، وارتدوا مرات عديدة ومارسوا الزنا، واللواط، والقتل، وغيره، مما دعا الإله أن يرفع فوقهم الطور، وأن يعاقبهم بالتيه والتحريم[2] والوباء والحروب الداخلية، والبرص والحيات وغيرها.

والشيء المهم جدًا في نقطتنا محل البحث أن نذكر حادثتين خطيرتين وقعتا في زمن موسى عليه السلام وبينهما زمن طويل، تلكما الحادثتان تتعلقان بالارتداد لعبادة الأصنام، أولاهما حادثة العجل الذهبي، والثانية عبادة بعل فغور في منطقة شطيم كما ذكرتها التوراة.

١- عبادة العجل الذهبي:

جاءت هذه القصة في القرآن الكريم في سور متعددة، لتشير بأصابع الاتهام إلى مدى الجحود الذي وصل ببني إسرائيل إلى الشرك بالله، رغم معاينتهم لقوته ومجده ورحمته بهم في ذات الوقت، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة]. وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ

(١) الطعام السخيف: المقصود به المن والسلوى.

(٢) تحريم الدخول إلى الأرض التي وعدهم إياها.

ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾[النساء]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه]

أما في التوراة فقد جاءت القصة كالتالي:

[ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: "قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه". فقال لهم هارون: "انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها". فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل، وصنعه عجلاً مسبوكًا. فقالوا: "هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتكم من أرض مصر". فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال: "غدًا عيد للرب". فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب. فقال الرب لموسى: اذهب انزل. لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعًا عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلاً مسبوكًا، وسجدوا له وذبحوا له. وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر". وقال الرب لموسى: "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيرك شعبًا عظيما". فتضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: "لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك. اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد". فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه. فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده: لوحان مكتوبان على جانبيهما. من هنا ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين. وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى: "صوت قتال في المحلة". فقال: "ليس صوت صياح النصرة ولا صوت صياح الكسرة، بل صوت غناء أنا سامع". وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمى غضب موسى، وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعمًا، وذراه على

وجه الماء، وسقى بني إسرائيل. وقال موسى لهارون: "ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة؟". فقال هارون: "لا يحم غضب سيدي. أنت تعرف الشعب أنه في شر. فقالوا لي: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم: من له ذهب فلينزعه ويعطيني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل". ولما رأى موسى الشعب أنه معرى لأن هارون قد عراه للهزء بين مقاوميه، وقف موسى في باب المحلة، وقال: "من للرب فإليّ". فاجتمع إليه جميع بني لاوى. فقال لهم: "هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه". ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى: "املأوا أيديكم اليوم للرب، حتى كل واحد بابنه وبأخيه، فيعطيكم اليوم بركة". وكان في الغد أن موسى قال للشعب: "أنتم قد أخطأتم خطية عظيمة، فأصعد الآن إلى الرب لعلي أكفر خطيتكم". فرجع موسى إلى الرب، وقال: "آه .. قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب والآن إن غفرت خطيتهم، وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت". فقال الرب لموسى: "من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي. والآن اذهب اهد الشعب إلى حيث كلمتك. هو ذا ملاكي يسير أمامك. ولكن في يوم افتقادي أفتقد فيهم خطيتهم". فضرب الرب الشعب؛ لأنهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون] (الخروج ٣٢).

ومن هنا نستنتج أن في القصتين –القرآنية والتوراتية– اختلافات كثيرة، إلا أنها لا تنكر مدى فداحة الجرم الذي اقترفوه، ولا تنكر أيضًا مدى سخط الرب من جراء هذا الجرم عليهم. ومن أهم الفروق بين القصتين القرآنية والتوراتية أن الأخيرة تنسب صناعة العجل الذهبي إلى النبي هارون عليه السلام نفسه، أخو موسى وترجمانه، ورأس سبط الكهانة للأبد في بني إسرائيل، وهذا بلا أدنى شك ليس بغريب على الخبث التوراتي.

٢- عبادة بعل فغور:

وذكرت تلك العبادة بعد موت هارون عليه السلام، تقول التوراة: [وأقام إسرائيل في شطيم، وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب. فدعون الشعب إلى ذبائح

آلهتهن، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن، وتعلق إسرائيل ببعل فغور. فحمى غضب الرب على إسرائيل. فقال الرب لموسى: "خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل. فقال موسى لقضاة إسرائيل: "اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور"] (عدد ٢٥: ١-٥)، فبنو إسرائيل بدأوا رحلة التيه بالكفر البواح، وها هم ينهونها أيضًا بالكفر البواح، حيث إن شطيم تلك هي المنطقة الأخيرة من مراحل التيه حسب ما ادعته التوراة، وعن ذلك تقول التوراة: [وإذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية[1] أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع، فلما رأى ذلك فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحًا بيده، ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما، الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها. فامتنع الوبأ عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوبأ أربعة وعشرين ألفًا. فكلم الرب موسى قائلا: "فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم أفن بني إسرائيل بغيرتي. لذلك قل: هاأنذا أعطيه ميثاقي ميثاق السلام، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي، لأجل أنه غار لله وكفر عن بني إسرائيل". وكان اسم الرجل الإسرائيلي المقتول الذي قتل مع المديانية زمري بن سالو، رئيس بيت أب من الشمعونيين، واسم المرأة المديانية المقتولة كزبى بنت صور، هو رئيس قبائل بيت أب في مديان. ثم كلم الرب موسى قائلا: "ضايقوا المديانيين واضربوهم؛ لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التي كادوكم بها في أمر فغور وأمر كزبى أختهم بنت رئيس لمديان، التي قتلت يوم الوبأ بسبب فغور] (العدد ٢٥: ٦-١٨).

وتعد قصة بعل فغور هذه هي ثالث خطية لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وعمومًا فإن كاتبي التوراة أنفسهم لم يكتفوا بالاعتراف بتلك الجرائم. بل إنهم نسبوا زورًا وبهتانًا أخس الصفات للنبيين موسى وهارون، فهما أولاً أبناء زنا محارم حيث تزوج عمرام أبيهما من عمته (يوكابد) أمهما، تقول التوراة: [وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى]. (الخروج ٦: ٢٠). ثم نسبوا لهارون صناعة العجل الذهبي، ثم صناعة الحية النحاسية التي يصلون إليها عند إصابتهم باللدغات،

(١) المديانية تلك امرأة زانية اسمها كزبى بنت صور.

تلك الحية صنعها موسى نفسه، تقول التوراة: [فأتى الشعب إلى موسى وقالوا: "قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك، فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات[1]". فصلى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى: "اصنع لك حية محرقة وضعها على راية، فكل من لدغ ونظر إليها يحيا". فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية، فكان متى لدغت حية إنسانًا ونظر إلى حية النحاس يحيا] (عدد ٢١: ٧-٩).

وعمومًا فقد أدرك الكهنة المتأخرون طبيعة تلك الحية الوثنية، وهذا بعد صنعها بقرون تصل إلى الملك حزقيا الذي حطمها بنفسه، تقول التوراة: [وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها "نحشتان"] (ملوك الثاني ١٨: ٤).

كما ادعوا أيضًا على موسى وهارون – عليهما السلام- النبيين العظيمين بأنهما أظهرا تشككًا في الرب عند ماء يسمى (ماء مريبة)، وعاقبهما الله على هذا التشكك بالحرمان من دخول أرض فلسطين، كما ادعوا أن هارون وأخته مريم قد تمردا على نبوة موسى، كما ادعوا أيضًا استبعاد سبط موسى من الخدمة الدينية (الكهانة) في إسرائيل وأعطيت لهارون ونسله، وهذا الاستبعاد كان بسبب زواج موسى من مديانية أولاً ثم من حبشية (كوشية) ثانيًا.

وقد ضرب كاتبو التوراة أبشع مثالاً للغدر والخيانة عندما ادعوا على موسى أنه أباد المديانيين أبشع إبادة، هؤلاء الذين آووه في بلادهم بل وتزوج منهم وقد قدموا لبني إسرائيل أجل الخدمات أثناء التيه، وكان على رأس من خدموهم يثرون حميه أبو زوجته وحوباب صهره.

ويرد الله سبحانه وتعالى على هذه الادعاءات بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ ﴾ [الأحزاب].

***

(١) تلك الحيات المحرقة أرسلها الله على بني إسرائيل لتلدغهم عندما قالوا على المن والسلوى «الطعام السخيف».

وهكذا تستمر سلسلة المعاصي منذ خروجهم من مصر، ومن نقطة الالتقاء الأولى على حدود مصر المقابلة، عند بعل صفون حتى نهاية فترة التيه وقبل دخولهم إلى فلسطين تلك الأرض التي وعدهم الله إياها والتي تفيض لبنًا وعسلاً كما قالوا عنها ووصفوها، تلك الفترة الأخيرة التي تنتهي بمعصية عبادة الإله بعل فغور.

وعلى الرغم من التحريم القاطع من قبل الإله العبراني – الذي أظهر لهم قوته وعجائبه دائماً- عن صنع الآلهة أو نحت الحجارة، تقول التوراة: [فقال الرب لموسى: "هكذا تقول لبني إسرائيل، أنتم رأيتم أنني من السماء تكلمت معكم، لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب، مذبحًا من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك، غنمك وبقرك. في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكرًا آتي إليك وأباركك. وإن صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنه منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها . ولا تصعد بدرج على مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه"] (خروج (٢٠: ٢٦). والإله العبراني هنا ينهى بني إسرائيل عن صنع الأصنام وخاصة آلهة الفضة والذهب، بل ونهى عن تهذيب الحجارة أو النقش عليها، وكذلك نهى عن استعمال الدرج للوصول إلى المذبح، كل تلك النواهي هي مظاهر من عبادة البعل ذلك الإله الوثني.

وعلينا أن نلاحظ الفعل الذي قام به يشوع بن نون بعد عبوره نهر الأردن للوصول إلى فلسطين أي بعد موت موسى وهارون من قبله، تقول التوراة: [حينئذ بنى يشوع مذبحًا للرب إله إسرائيل في جبل عيبال، كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل، كما هو مكتوب في سفر توراة موسى[1]. مذبح حجارة صحيحة لم يرفع أحد عليها حديدًا، وأصعدوا محرقات للرب، وذبحوا ذبائح سلامة. وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل] (يشوع ٨: ٣٠-٣٢).

(١) لا توجد توراة باسم توراة موسى لأن الله هو الذي كتب الشرائع بيده وقد كسرها موسى بأن ألقاها من يده، اللهم إلا إذا كان المقصود سفر موسى لنعتبره ضائع حتى الآن. وبهذا يستقيم الكلام منطقيًا. وقد يقول قائل إن المقصود هو سفر التثنية المنسوب لموسى ذاته عليه السلام ونرد قائلين: إن جميع الأبحاث التحليلية التاريخية أثبتت أن هذا الكلام ما هو إلا محض تزوير ولا يمكن بحال من الأحوال نسبته لموسى.

وفي فعل يشوع بن نون هذا مخالفة صريحة لأمر الرب السابق ذكره، ونستنتج من الفقرة السابق أيضًا أن موسى هو الذي أمر يشوع بذلك.

***

والخلاصة .. نقول إن هذا الشعب قد اقترف في عيني الرب كل ما هو دنيء وأنهم في كل خطوة خطوها كان البعل إلههم الأوحد، ولم يكن لله تعالى نصيب في قلوبهم.

عقيدة بني إسرائيل في فلسطين

بدأ تاريخ بني إسرائيل في فلسطين بعبورهم نهر الأردن من جهة الشرق إلى جهة الغرب تحت قيادة يشوع بن نون، وهناك بدأت أبشع صورة أو قصة من قصص الإرهاب الدموي الذي لا يعرف حدًا للتوقف، حيث هاجم العبرانيون عشرات المدن والقرى في تلك البلاد، وقتلوا كل من فيها حتى النساء والعجائز والرضع والبهائم والحمير بحد السيف، كما أوردت التوراة في سفر يشوع بأكمله، ولم يكتف بنو إسرائيل بتلك المذابح، بل أحرقوا تلك المدن والقرى وتم تسويتها بالأرض، ولم يحملوا معهم إلا الذهب والفضة، والقارئ لتلك القصة في التوراة يلمس مدى الفخر اليهودي لإهراق تلك الكمية من الدم، ولا يملك قارئ التوراة إلا أن يصاب بالغثيان من كم الدم والغدر ونقض العهود والمواثيق وقتل الأسرى وذبح الضعفاء الذي قام به هؤلاء القوم إرضاءً لهذا الإله الوحشي، وعمومًا فالقصة تبدأ بوضع الأنصاب الحجرية في قاع نهر الأردن، وكذلك على ضفته الغربية بعد العبور مباشرة، ونرى فيها الدعاء المنسوب إلى يشوع ذاته والموجه لآلهة الشمس والقمر، كما نرى فيها أيضًا بذرة الحرب الأهلية التي أعلنها الأسباط المقيمون غرب الأردن على الأسباط المقيمين شرق الأردن، لمجرد محاولة تلك الفرقة الأخيرة بناء معبد حام حوله الشك في أنه سيصبح معبدًا موازيًا لما كان الآخرون ينتوون بناءه.

كما نلاحظ كم التهديدات التي ساقها يشوع بن نون للقوم لينزعوا آلهتهم الغريبة التي عبدوها في مصر وبين النهرين بصورة لافتة للنظر.

كما علينا أن نلاحظ أيضًا أن هذا الشعب بأكمله لم يكن مختونًا[1]، وقد تم ختانه بعد العبور في منطقة الجلجال بسهول أريحا.

تقول التوراة: [في ذلك الوقت قال الرب ليشوع: "اصنع لنفسك سكاكين من صوان، وعد فاختن بني إسرائيل ثانية". فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بني إسرائيل في تل القلف] (يشوع ٥: ٢-٤). وبداهة أن الختان لا يتم إلا مرة واحدة فقط.

وبعد تلك الفترة الوجيزة من المجازر، استقر بنو إسرائيل في بعض مناطق فلسطين، وكانت هناك حروب كثيرة مع جيرانهم وفيما بينهم أيضًا، فتولى أمرهم فئة منهم أطلق عليهم اسم القضاة، وكان اعتقاد بني إسرائيل في الفترة السابقة لعصر القضاة أن الملك الآمر الناهي لهم هو الإله (يهوه) نفسه.

ثم بدءوا سريعًا في التخلي عن هذا المعتقد خطوة خطوة، فطلبوا أولاً تنصيب ملك عليهم من أنفسهم، ليكون بديلاً عن الإله في حمل المسئوليات الحربية. فكان طلب تنصيب ملك عليهم صورة أخرى مخففة من مطلبهم الأول بأن يجعل موسى عليه السلام لهم إلهًا كما للآخرين آلهة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة].

ثم خلقوا بعد ذلك بقرون – أثناء سبيهم في بابل – قصة المسيح المخلص (المسايا) ملك اليهود الذي سيخرج من سبط يهوذا[2] بقدرات فائقة حربية كانت أو عقائدية، يملكون بها على كل أمم الأرض، وهكذا فحتى القيمة الرمزية للإله يهوه بدأت في

(١) الختان هو الأساس المبدئي لعقيدة اليهود وبدونه لا يكون المرء يهوديًا.

(٢) لهذا السبب تم عمل نسب أرضي للسيد المسيح يرجع إلى سبط يهوذا إذ نسبوه إلى يوسف النجار خطيب السيدة مريم وهذا خطأ فادح، إذ من المنطقي أن يكون نسبه الأرضي راجعًا إلى مريم أمه فقط وأشار القرآن إلى هذا النسب الصحيح بأن قال (عيسى بن مريم) وقال عن أمه: (مريم ابنة عمران)، وعمران هو عمرام بن قاهات بن لاوى، وهو رأس سبط الكهانة.

التآكل تدريجيًا، ثم الاختفاء نهائيًا، ناهيك عن القيمة الفعلية لله تعالى والتي لم تدخل حياتهم مطلقًا.

بدأت الفترة الأولى من حياة بني إسرائيل في فلسطين بفترة القضاة، والتي تم تدوين أهم معالمها في سفر القضاة، وهو خليط من الخرافات الساذجة والأساطير التي تعكس العقلية البدوية الوثنية الفجة المميزة لتلك الفترة وهذا الشعب، وهو عهد فوضى وتخبط وحروب، والأهم من ذلك عبادة صريحة للبعل. هذا الإله الوثني الذي ما لبث أن دخل بنو إسرائيل أرض كنعان حتى بدءوا بنصب المعابد للبعل وعبادته، وقد توقفت عبادة البعل لفترة وجيزة على يد بعض المصلحين، ولكن عادت تلك العبادة مرة أخرى وبشكل أبشع، وهكذا دواليك.

فبعد أن مات يشوع بن نون مباشرة، تقول التوراة: [ومات يشوع بن نون عبد الرب ابن مئة وعشر سنين. فدفنوه في تخم ملكة في تمنة حارس في جبل أفرايم، شمالي جبل جاعش. وكل ذلك الجيل أيضًا، انضم إلى آبائه، وقام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب، ولا العمل الذي عمل لإسرائيل، وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت] (قضاة ٢: ٨-١٣). وتقول أيضًا: [وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم. ولقضاتهم أيضًا لم يسمعوا، بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها] (قضاة ٢: ١٦-١٧).

واستمر حال بنو إسرائيل هكذا لفترة طويلة وبعدها تقول التوراة: [فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب، ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري] (قضاة ٣: ٧). فحمى غضب الرب عليهم فسلط عليهم الآراميين حتى خلصهم مخلص اسمه عثنيئيل بن قناز، ثم مات هذا الرجل الصالح والتي وصفته التوراة بأن روح الله كان عليه، وبعد موته تقول التوراة: [وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب] (قضاة ٣: ١٢). فحمي غضب الرب عليهم فسلط عليهم المؤابيين سنوات طويلة حتى خلصهم على يد رجل أعسر اسمه إهود بن جيرا وكان من سبط بنيامين، وما

إن مات هذا المخلص حتى [وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب] (قضاة ٤: ١)، فحمى غضب الرب عليهم فسلط عليهم الكنعانيين، وخلصهم على يد دبورة وباراق، وكانت دبورة في ذلك الوقت قاضية إسرائيل، وقالت عنها التوراة أنها نبية، أما باراق فهو من سبط نفتالي، وبعد أن خلصا بني إسرائيل من تحت وطأة الكنعانيين حتى [وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب] (قضاة ٦: ١). فغضب الرب ودفعهم ليد المديانيين لمدة سبع سنوات، وخلصهم على يد جدعون النبي ابن يوآس الأبيعزري، وعلى يديه تم هدم مذابح البعل استجابة لأمر الرب، تقول التوراة: [اهدم مذبح البعل الذي لأبيك، واقطع السارية التي عنده] (قضاة ٦: ٢٥). وبعد موت جدعون تقول التوراة: [وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم، وجعلوا لهم بعل بريث إلهًا. ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم. ولم يعملوا معروفًا مع بيت يربعل جدعون، نظير كل الخير الذي عمل مع إسرائيل] (قضاة ٨: ٣٣-٣٥).

والأمر المثير للدهشة هنا أن جدعون المخلص النبي والداعي إلى عبادة يهوه الواحد، كان يحمل هو نفسه اسمًا منسوبًا للإله بعل في الفقرة السابقة هو (يربعل).

ثم بعد ذلك تولى أبيمالك بن يربعل (جدعون) حكم إسرائيل، بعد أن ذبح إخوته بني يربعل سبعين رجلاً على حجر واحد كما تقول التوراة مستعينًا في ذلك بسبعين شاقل فضة من معبد بعل بريث، ومات أبيمالك على ثورة داخلية من بعض عابدي البعل نزاعًا على الحكم، ثم بعد موته: [وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب، وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه] (قضاة ١٠: ٦). وحمى غضب الرب عليهم وسلط عليهم الفلسطينيين والذين أذلوهم ردحًا من الزمان، حتى اجتمعت صفوفهم وراء يفتاح الجلعادي والذي وصفته التوراة بالنبوة قائلة: [فكان روح الرب على يفتاح] (قضاة ١١: ٢٩).

ومن المثير للدهشة أن هذا اليفتاح هو ابن زنا أنجبه أبوه من عاهرة، وقد ترأس عصابة تقطع الطرق، وقد ذكرت سابقًا كيف ذبح ابنته كقربان بشري كان قد

نذره من قبل. ثم ثانية: [عاد بنو إسرائيل ثانية يرتكبون الإثم في عيني الرب] (قضاة ١٣: ١).

وهنا جاء كاتبو التوراة بقصة عبثية عن بطل لهم اسمه (شمشون) وهو رجل استطاع أن يقتل ألف رجل بفكه حمار طري وغيرها من التخاريف والأساطير وهي أساطير ثبت فعليًا أنها منسوخة من أسطورة (هرقل) الإغريقية، مع فارق واحد هو خلوها من القيم الأخلاقية التي تحتويها القصة الأخيرة، وغني عن القول إنه بمقارنة حياة البطلين تظهر لنا أن شمشون رجلاً هزيلاً سخيفًا أحمقًا لا روح فيه، ومن الغريب أن هذه الخرافة وبطولات هذا الشمشون ترضي قلب المؤمن اليهودي فقط، ولكن على الأشخاص العقلانيين منهم لكي يفضلوا شمشون على هرقل أن يكونوا عبيدًا للبلاهة الدينية أولاً.

عمومًا، فقد انتهى سفر القضاة التوراتي والذي يؤرخ لتاريخ إسرائيل لمدة قاربت ٣٠٠ سنة حسب تقديراتهم المغلوطة دائمًا بقصتين:

أولاهما عن رجل اسمه (ميخا) أقام من بيته معبدًا لعبادة الأصنام، واستعان على ذلك بكاهن من سبط (لاوى)، وقد قام بخطف هذا الكاهن وأصنامه أبناء سبط إسرائيلي كامل هو سبط (دان)، حيث حلت عليهم بركة الأصنام، فاستطاعوا إبادة مدينة كاملة واحتلالها تقول التوراة:

[ونصب أبناء دان لأنفسهم التمثال المنحوت. وكان يهو ناثان بن جرشوم بن منسي وهو وبنوه كهنة لسبط الدانيين إلى يوم سبي الأرض. ووضعوا لأنفسهم تمثال ميخا المنحوت الذي عمله، كل الأيام التي كان فيها بيت الله في شيلوه] (قضاة ١٨ : ٣٠-٣١).

أما القصة الثانية فهي عن كاهن لاوى أيضًا، كانت له عاهرة محظية، قام أبناء سبط (بنيامين) باغتصابها، بل واغتصابه هو أيضًا جنسيًا، مما أدى إلى حرب أهلية نتج عنها الإفناء شبه الكامل لسبط بنيامين.

أما نهاية تلك الفترة وبداية فترة ملوك إسرائيل فنستطيع أن نقرأ عنها في سفري صموئيل[١]، ويرينا هذا السفر كيف كان كهنة (يهوه)، منغمسين في سلب القرابين ومضاجعة النساء المتعبدات في معابد (يهوه)، وكيف أن عقاب من يستولي على تابوت العهد كان هو الإصابة بالبواسير، وكيف أن تكفير الفلسطينيين عن الاستيلاء على هذا التابوت كان بإرجاعه مصحوبًا مع خمسة نماذج للبواسير[٢]، وخمسة فئران ذهبية[٣]، وعلى كل فقد بدأ صموئيل عهده بدعوة بني إسرائيل: [وكلم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلاً: "إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب، فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم، وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده، فينقذكم من يد الفلسطينيين". فنزع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده] (صموئيل الأول ٧: ٣-٤).

وقد اختتم صموئيل عهده كقاضٍ في إسرائيل بمطالبة القوم له بتنصيب ملك عليهم، مما ذكرنا أنه بداية التخلي عن مجرد القيمة الرمزية للرب وسطهم، ومما فصَّلته ووضّحته سطور التوراة ذاتها بالقول التالي على لسان الرب (يهوه) مخاطبًا (صموئيل)، تقول التوراة:

[فقال الرب لصموئيل: "اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى، هكذا هم عاملون بك أيضًا"] (صموئيل الأول ٨: ٧-٨).

وهكذا تم تنصيب شاؤل البنياميني[٤]، كأول ملك على شعب إسرائيل.

---

(١) تتطابق قصة صموئيل النبي التوراتي مع قصة المسيح الإنجيلية في نقاط عديدة جدًا.

(٢) تقديم نماذج البواسير (الشرج)، تتفق مع الطقوس الجنسية لعبادة البعل والإله داجون إله الفلسطينيين.

(٣) الفئران الذهبية كانت حيوانات مقدسة عند المصريين.

(٤) شاؤل البنياميني توراتيًا، وطالوت قرآنيًا.

دامت تلك الحقبة فترة وجيزة من تاريخ إسرائيل، وشملت عهد ثلاثة ملوك متعاقبين هم (شاؤل وداود وسليمان)، وهذه الفترة الاتحادية كانت تحمل في ثناياها بذرة الحرب الأهلية والانقسام الإسرائيلي منذ البداية، كما شهدت صراعًا مريرًا على السلطة بين شاؤل البنياميني وداود اليهوذي، والذي ينتمي عرقيًا إلى المؤابيين عن طريق جدته (راعوث) وهؤلاء المؤابيين هم أعدى أعداء إسرائيل، وقد شهد هذا الصراع الداخلي الكثير من المؤامرات والفتن، وانتهى بانتصار سبط (يهوذا) الأكبر عددًا وضمه لأراضي بنيامين والتي ظلت تحت سيطرته العسكرية والسياسية حتى بعد انقسام المملكة وضم أراضي باقي الأسباط لدولة إسرائيل الشمالية. إلا أن الانتقام البنياميني ظل متقدًا ومستمرًا في سلسلة تبدأ من شاؤل الملك، مرورًا بإرميا النبي التوراتي، وأخيرًا -وليس آخرًا- شاؤل الأخير البنياميني أيضًا (بولس الرسول)[1].

أما عن شاؤل البنياميني الأول، فقد بدأ عهده بدعوة النبي صموئيل شعب إسرائيل للتخلي عن الوثنية طلبًا لنصرة الرب في الحرب تقول التوراة: [فصرخوا إلى الرب قائلين: أخطأنا لأننا تركنا الرب وعبدنا البعليم وعشتاروت، فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك] (صموئيل الأول ١٢: ١٠). وكان عهد الملك صموئيل قصيرًا ولكنه اتسم بالحروب الداخلية والخارجية، وقد وصفته التوراة بعصيان الرب في مواضع متعددة – على الرغم من أن التوراة قد نسبت له النبوة- ومع عصيانه المتكرر للرب، حلت عليه دينونة الرب له، وخلع روح الرب منه وهبوط الروح الرديء عليه فأصيب بالهذيان، وبعد ذلك –وبلا سبب- حل عليه روح الرب ثانية أثناء تعقبه لداود لقتله فصار نبيا مرة أخرى، وتلا ذلك قتله لكهنة يهوه كلهم وكان على رأسهم (أخيمالك بن أخيطوب) الكاهن الأكبر، ثم بعد ذلك لجأ صموئيل النبي للسحر والعرافة، وفي النهاية انتحر صموئيل النبي أثناء إحدى المعارك، وهذا كان ملخص قصة ملك إسرائيل الأول ونبي إسرائيل، والذي كان عابدًا للبعل أيضًا، فسمى ابنه (إشبعل) وسمى حفيده (مري بعل) على اسم جده الأكبر (بعل) كما رأوه كاتبو التوراة، مما جعله من أسرة عريقة في عبادة هذا الصنم المسمى (بعل).

(١) بولس الرسول هو مشرع المسيحية الأول.

أما عن قصة ملك إسرائيل الثاني في التوراة (داود)، وهي قصة أدهى وأمر من الأولى، هذا الملك الذي لم تعترف التوراة بالنبوة له ولا السلطة الدينية قط، حيث إن هذا الملك نستطيع حسب تعريفات اليهود أن نخرجه من زمرة الإسرائيليين حيث إن اليهودية تثبت بالنسب عن طريق الأم، ومما هو جلي وواضح في التوراة أن داود ينتمي عرقيًا إلى المؤابيين أعداء إسرائيل الأزليين عن طريق جدته لأبيه (راعوث)، وبما أن داود –رغم انتمائه لسبط يهوذا، وتحقيقه لسيطرة هذا السبط على باقي أسباط إسرائيل سياسيًا وعسكريًا، وأهمها سبط بنيامين الذي انتزع منه الملك والأرض، وسبط إفرايم أقوى أسباط الشمال الإسرائيلي ولفترة وجيزة انقسمت بعدها المملكة ثانية إلى شطرين- إلا أننا لا يمكن لنا أن نصف دولة أو مملكة داود بالنقاء الإسرائيلي مطلقًا، مما هو واضح وجلي في تكوين داود لأركان دولته عندما استتب له الأمر، هذه الدولة التي حوت أبناء سبط يهوذا وبنيامين المقهور، إلى جانب أعداد غفيرة من أبناء الأمم الأخرى، ليس هذا وحسب بل حوت أيضًا أمم معادية لإسرائيل مثل العمونيين والمؤابيين والأدوميين والإسماعيليين وعدد ضخم من الفلسطينيين والعرب وغيرهم وغيرهم تستطيع أن تعرفهم عند قراءة سفر الأيام الأول الإصحاح١١، مما جعل مملكة داود في الواقع دولة أممية.

مما جعل داود رمزًا لسلطة الملك عسكريًا وسياسيًا عند بني إسرائيل حتى اليوم ويدل على ذلك استخدام إسرائيل للنجمة السداسية الداودية شعارًا لها.

وعلى الرغم من أن داود كان رمزًا يفخر به كل أبناء إسرائيل عامة وأبناء سبط يهوذا خاصة والذين تم سبيهم في بابل والذين كان منهم الأحبار الذين كتبوا التوراة، إلا أنهم رسموا شخصية لداود هي أحط وأخس الشخصيات البرجماتية التي لا تمثل فضيلة واحدة، فهو أولاً نبع من نسل زنا، حيث إن جده الأكبر (زارح) هو نتاج زنا محارم بين الأب يهوذا وزوجة ابنه (إيثامار)، وكذلك فإن جده المباشر (عوبيد) هو نتاج زواج أبيه (بوعز) من (راعوث المؤابية)، وعلى الرغم من محاولات إضفاء الصبغة المدراشية على هذه الزيجة إلا أنها مليئة بروائح الزنا التي تزكم الأنوف.

أما عن صفات داود الشخصية، فهو رجل يلهث خلف شهواته، ويرتكب من أجلها أي موبقات، فهو قد تزوج من بنت الملك (شاؤل) والتي أحبته وأنقذت حياته

مرات عديدة، وتدعى (ميكال) وهي الزوجة الأولى له، ثم بعد مقتل أبيها (شاؤل) وبعد أن استتب الأمر لداود أذلها أيما إذلال، ولم ينجب منها أولاد، وصادر أملاك كل أهلها بعد أن استأصل شأفتهم.

أما زوجته الثانية (أبيجايل) وكانت متزوجة من رجل ثري كبير السن رفض ابتزاز داود له، فخانته تلك المرأة وانضمت إلى داود، وما إن علم الزوج بخيانتها له مع ذلك الشاب الفتى داود، سقط مشلولاً ومات، وتزوجها داود بعد ذلك رغم علمه ويقينه أنها امرأة خائنة لا أمان لها.

ثم تزوج من أخرى اسمها (أخينوعم)، وقالت التوراة حينئذ أن (شاؤل) قام بتزويج (ميكال) زوجة داود ودون حدوث طلاق إلى رجل آخر اسمه (فلطى)، كحالة نادرة من حالات تعدد الأزواج الواردة في التوراة.

ثم تزوج من امرأة اسمها (بتشبع)، وهي زوجة (أوريا الحثي) أخلص قواد داود، تزوجها داود بعد أن اشتهاها ودبر مؤامرة أقل ما توصف به هي الدناءة لقتل زوجها (أوريا الحثي)، وتلك هي المرأة التي أنجب منها سليمان، وتلك هي الزيجة التي قال الرب فيها: [والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد؛ لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة] (صموئيل الثاني ١٢: ١٠).

وهكذا اتسمت كل زيجاته بخيانة الأزواج أو الآباء، أما عن ذريته فقد اغتصب ابنه (أمنون) أخته العذراء (ثامار)، وانتقم منه أخوها الآخر (أبشالوم) بقتله، وهذا الأخير خرج لاحقًا في ثورة حربية على أبيه، وقامت بينه وبين أبيه معارك عديدة وانضم كل أعداء داود إلى جيوش ابنه (أبشالوم)، مما أدى إلى انشطار المملكة بعد ذلك بفترة قصيرة، وقد قام (أبشالوم) هذا أثناء تلك المعارك بمضاجعة كل محظيات أبيه على مرأى جميع الإسرائيليين، تقول التوراة:

[فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل] (صموئيل الثاني ١٦: ٢٢).

وعمومًا فقد انتهى الأمر بمقتل هذا الابن المارق (أبشالوم) أما عندما كبر داود في السن وفي وقت شيخوخته أتوا إليه بفتاة تدعى (أبيشج) وكانت فائقة الجمال، لكي يضطجع معها لكنه لم يستطع معاشرتها.

كانت هذه لمحة موجزة عن الصفات الأخلاقية السائدة في المناخ الأسري لداود، أما عن صفاته الأخرى فهو حقود، مخادع، ناقض لكل العهود والمواثيق، ففي عهد شاؤل أول ملوك بني إسرائيل وحمى داود ومسيح الرب، خرج عليه داود وحاربه وانشق عليه حتى مات، وأساء معاملة ابنته (ميكال) كما سبق وأن ذكرنا، بل إنه عقد مع شاؤل ميثاقًا، تقول التوراة على لسان شاؤل: ["والآن فإني علمت أنك تكون ملكًا وتثبت بيدك مملكة إسرائيل. فاحلف لي الآن بالرب إنك لا تقطع نسلي من بعدي، ولا تبيد اسمي من بيت أبي"، فحلف داود لشاؤل ثم ذهب شاؤل إلى بيته، وأما داود ورجاله فصعدوا إلى الحصن] (صموئيل الأول ٢٤: ٢٠-٢٢).

وعلى الرغم من هذا الميثاق إلا أن غدر داود واستأصل كل نسل شاؤل جميعًا، حتى أنه بحث بعد حين عن أي فرد من نسل شاؤل ليكفر عن أفعاله معهم، فلم يجد إلا صبيًا واحدًا أعرج الرجلين هو حفيد لشاؤل من ابنه (يوناثان) الصديق الوفي لداود فأبقاه معه فترة، ثم سلمه مع ستة آخرين للآموريين أعداء بني إسرائيل، فصلبوهم على الجبل عند قبر شاؤل، تقول التوراة: [وسلمهم إلى يد الجبعونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب. فسقط السبعة معًا وقتلوا في أيام الحصاد] (صموئيل الثاني ٢١: ٩). وبذلك قد أفنى نسل شاؤل سيده ويوناثان صديقه عن بكرة أبيه، وسلب أملاكهم وأموالهم، وذلك بعد أن أذلهم.

وعلى نفس الوتيرة، كان قد لجأ أثناء ضيقته إلى منطقة جت وملكها (أخيش بن معوك) في حروبه مع شاؤل فآووه وأكرموه، إلا أنه كان يتنكر في الليل ويهاجم قراهم، ويقتل أطفالهم ونساءهم، تقول التوراة: [فلم يستبق داود رجلاً ولا امرأة حتى يأتي إلى جت، إذ قال: "لئلا يخبروا عنا قائلين: هكذا فعل داود". وهكذا عادته كل أيام إقامته في بلاد الفلسطينيين] (صموئيل الأول٢٧:١١). مما اتخذته التوراة مفخرة حربية.

وهكذا أيضًا كانت عهوده ومواثيقه الشخصية، فها هو مثلاً يعطي ميثاقًا غليظًا لرجل اسمه (شمعي بن جيرة)، تقول التوراة: [ثم قال الملك لشمعي: "لا تموت". وحلف له الملك] (صموئيل الثاني ١٩: ٢٣). لكنه لم ينس قبل أن يموت أن يوصي ابنه سليمان قائلا: [وهو ذا معك شمعي بن جيرا البنياميني من بحوريم، وهو لعنني لعنة شديدة يوم انطلقت إلى محنايم، وقد نزل للقائي إلى الأردن، فحلفت له بالرب قائلا: إني لا أميتك بالسيف. والآن فلا تبرره لأنك أنت رجل حكيم، فاعلم ما تفعل به وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية] (ملوك الأول ٢: ٨-٩).

وهذا كان آخر ما قاله داود في حياته وبعدها مباشرة مات.

وقد نفذ سليمان الوصية حيث دبر لقتل الرجل، تقول التوراة: [ثم أرسل الملك (سليمان – الكاتب) ودعا شمعي وقال له: "ابن لنفسك بيتًا في أورشليم، وأقم هناك ولا تخرج من هناك إلى هنا أو هنالك. فيوم تخرج وتعبر وادي قدرون، اعلمن بأنك موتًا تموت، ويكون دمك على رأسك". فقال شمعي للملك: "حسن الأمر. كما تكلم سيدي الملك كذلك يصنع عبدك". فأقام شمعي في أورشليم أيامًا كثيرة. وفي نهاية ثلاث سنين هرب عبدان لشمعي إلى أخيش بن معوك ملك جت، فأخبروا شمعي قائلين: "هوذا عبداك في جت". فقام شمعي وشد على حماره وذهب إلى جت إلى أخيش ليفتش على عبديه، فانطلق شمعي وأتى بعبديه من جت. فأخبر سليمان بأن شمعي قد انطلق من أورشليم إلى جت ورجع. فأرسل الملك ودعا شمعي وقال له: "أما استحلفتك بالرب وأشهدت عليك قائلا: إنك يوم تخرج وتذهب إلى هنا وهنالك اعلمن بأنك موتًا تموت؟ فقلت لي: حسن الأمر قد سمعت. فلماذا لم تحفظ يمين الرب والوصية التي أوصيتك بها؟". ثم قال الملك لشمعي: "أنت عرفت كل الشر الذي علمه قلبك الذي فعلته لداود وكرسي داود يكون ثابتًا أمام الرب إلى الأبد" وأمر الملك بناياهو بن (يهوياداع)، فخرج وبطش به فمات. وتثبت الملك بيد سليمان] (ملوك الأول ٢: ٣٥- ٤٦).

هذا بخلاف المؤامرات والنهب والسلب والمذابح حتى في قلب المذبح نفسه، وغيرها الكثير من القصص والتي لا يتسع المجال هنا لذكرها، لذلك فإن التوراة نفسها تقر بأن داود لم يكن مقربًا من الرب بالدرجة الكافية التي تجعله يبني الهيكل، تقول

التوراة على لسان الرب لداود: [هكذا قال الرب: أنت لا تبن لي بيتًا للسكنى] (أخبار الأيام الأول ١٧: ٤). كما أقرت التوراة أن داود نفسه قد اعترف لسليمان أثناء مرض موته: [فكان إليّ كلام الرب قائلاً: قد سفكت دمًا كثيرًا وعملت حروبًا عظيمة، فلا تبن بيتًا لاسمي لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي] (أخبار الأيام الأول ٢٢: ٨).

ولعل أهم الأسباب التي لم تفصلها التوراة في رفض الرب لداود، على الرغم من أنها أوردتها خفية في مواضع أخرى، هو أن شخصية داود التوراتية كانت عابدة للبعل وليس للإله (يهوه)، حيث إن التوراة تدعي له ابنا أنجبه في أورشليم اسمه (بعل يا داع)، تقول التوراة: [وقد أخذ داود نساء أيضًا في أورشليم، وولد أيضًا داود بنين وبنات وهذه أسماء الأولاد الذين كانوا له في أورشليم: شموع وشوباب وناثان وسليمان وبيجار وأليشوع وألغالط ونوجه ونافج ويافيع وأليشمع وبعليا داع وأليفلط] (أخبار الأيام الأول ١٤: ٣-٦).

كما تذكر التوراة استعانة داود بالإله بعل أثناء حروبه ضد الفلسطينيين، تقول التوراة: [فجاء داود إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك، وقال: "قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه". لذلك دعى اسم ذلك الموضع "بعل فراصيم"] (صموئيل الثاني ٥: ٢).

ولنلاحظ هنا أن تسمية هذا المكان ببعل فراصيم قد تمت بعد أن قال داود أن الرب قد اقتحم أعداءه أمامه كاقتحام المياه. وتقول التوراة أيضًا: [فصعدوا إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك. وقال داود: "قد اقتحم الله أعدائي بيدي كاقتحام المياه". لذلك دعوا اسم ذلك الموضع "بعل فراصيم"] (أخبار الأيام الأول ١٤: ١١).

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الاسم السابق لهذا المكان هو (وادي الفائيين) وكان به كل الفلسطينيين وقتها، ولما كان النصر حليف داود فكان مستبشرًا بالمكان وسماه (بعل فراصيم) أي (إله الاقتحام). أي أن الإله يساوي البعل في عقيدة داود، كما أن اللاويين خدام التابوت الموجودين على أيامه كانت أسماؤهم تحمل في ثناياها أسماء آلهة مختلفة ومن بقاع مختلفة، مثل عوبيد أدوم، وشميراموث، وأخيطوب، وأبيمالك،

وهي أسماء لآلهة فلسطينية وكلدانية، ومن رجال داود بعليا، وعزيا العشتروتي، كما أن تابوت الرب ذاته كان موجودًا في قرية من منطقة (بعلة) اسمها (يعاريم) وفي نص توراتي آخر اسمها (بعلة يهوذا).

وفي النهاية نستخلص أن الحاخامات كتبة التوراة المحرفة هذه لم يحتفظوا لنا بأي جزء صحيح من الكتاب المقدس الذي أنزل على داود عليه السلام وهو (الزبور)، والذي استبدلوه بمقاطع فولكلورية أطلقوا عليها اسم (المزامير)، ونسبوها له. وحتى هذه المقاطع ولجهلهم الشديد لا تصلح معها تسمية المزامير حيث إن معظمها يعزف على آلات وترية وصاجات وطبول وغيرها. وقد أثبت المؤرخون أن بعض من هذه المزامير – بل الكثير منها- قد تم نقله حرفيًا من أناشيد معبد آتون والتي صاغها إخناتون قبل عصر داود نفسه بقرون عديدة، والتي لم يصلنا منها إلا النذر اليسير، وهذا لأسباب عديدة منها أنها أتلفت عمدًا عن طريق الإحراق والتدمير المدفوع بالتعصب الديني سواء من كهنة آمون، أو في العصر القبطي، ولو كان وصل أكثر لاكتشفنا نقلاً وتزويرًا أكثر. والبعض الآخر من المؤرخين نسبوها لكتابات أخرى نقلت عنها بشكل مباشر مثل السومرية والبابلية والكنعانية.

***

أما عن سليمان بن داود، فكان الملك الثالث والأخير لمملكة إسرائيل الموحدة، وقد اتسمت بداية عهده بنفس الدموية التي اتسم بها عهد أبيه داود، فقد بدأ بقتل أخيه (أدونيا) الأخ الأكبر له والوريث الشرعي للعرش، وقتل أيضًا بطل حروب داود، رئيس الجيش (يوآب)، وقتل أيضًا (شمعي بن جيرا) نصير شاؤل البنياميني وقريبه.

وقد تدخل سليمان أيضًا في السلطة الدينية وقام بعزل الكهنة، على الرغم من كونه يهوذيا من سبط يهوذا، وليس من سبط لاوي المنوط به الشئون الدينية، وعلى الرغم أيضًا من أن التوراة نفسها لم تعترف به كنبي مطلقًا.

أما بناء الهيكل والذي اعتبرته التوراة من أهم مآثر هذا الملك (سليمان بن داود)، فقد تم بناؤه على كواهل مئات الألوف من أبناء الشعوب الأخرى التي فرض عليها السخرة

والعبودية، وقد استعمل سليمان في بناء الهيكل أطنانًا من ثروات الشعوب المنهوبة، وقد تم بناؤه من أحجار منحوته مهذبة بالإزميل مما خالف الشريعة الموسوية بهذه الفعلة، تقول التوراة: [وإن صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها](خروج ٢٠: ٢٥).

وعليه فقد خالف سليمان هذا الأمر الإلهي المباشر والواضح والصريح تقول التوراة: [وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة، حجارة كريمة لتأسيس البيت (بيت الله المسمى الهيكل وليس البيت منسوبًا لسليمان – الكاتب)، حجارة مربعة، فنحتها بناؤو سليمان، وبناءوه حيرام والجبليون، وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت] (ملوك الأول ٥: ١٧-١٨).

وقد تم بناء الهيكل تمامًا على نفس النسق الكهنوتي المصري، الذي يمكن مقارنته بسهولة بمعبد الدير البحري في الأقصر، بل أضاف إليه بركة نحاسية ضخمة ترتكز على اثنى عشر تمثالاً لثيران، ولم يكتف سليمان بذلك بل [وهذا عمل القواعد: لها أتراس، والأتراس بين الحواجب، وعلى الأتراس التي بين الحواجب أسود وثيران وكروبيم، وكذلك على الحواجب من فوق. ومن تحت الأسود والثيران قلائد زهور عمل مدلى] (ملوك الأول ٧: ٢٨-٢٩).

وهذا النمط المعماري هو نمط مصري أصيل قام اليهود بتقليده. والمهم في هذا المقام أن سليمان الذي تراءى له الرب مرتين قد نسي وصية الرب لموسى، تقول التوراة: [فاحتفظوا جدًا لأنفسكم فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار. لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتًا، صورة مثال ما، شبه ذكر أو أنثى، شبه بهيمة ما مما على الأرض، شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء، شبه دبيب ما على الأرض، شبه سمك ما مما في الماء من تحت الأرض] (تثنية ٤: ١٥-١٨). والجدير بالذكر أن هذا الهيكل بهذه الصورة لا يزيد عن كونه معبدًا لعبادة الأصنام، أو مغارة لصوص في أحسن أحواله كما نعته المسيح عليه السلام، ولم يكن لله تعالى المنزه عن الشرك نصيب قلّ أو كثُر.

ولم تمر سنوات قلائل من بناء الهيكل، تم نصب أصنام البعل وعشتاروت بداخله، مما جعله معبدًا وثنيًا وجعل الشعب يعود لديانته المستقرة عبادة البعل، تقول التوراة:

[وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: "لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم" فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموشس رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب] (ملوك الأول ١١: ١ – ١٠).

ومما سبق نستنتج أن شخصية سليمان الملك في صورتها التوراتية هي تجسيد لملك يعبد أصنام البعل وعشتاروت، وبالإضافة إلى أنه ملك منحرف وشهواني وجشع وجبار، يهتم بالسحر والكفر والسفه في الأبهة، محبًا لجمع المال لنفسه من التجارة ومن غيرها مثل الضرائب والمكوس الرهيبة التي كان يرهق بها شعبه التعيس لتغطية نفقات بذخه، مما أدى إلى انقسام المملكة بعد موته مباشرة إلى دولتين متعاديتين.

وبذلك نكون قد أتممنا في إيجاز استعراض تلك المرحلة العقائدية من تاريخ دولة إسرائيل الموحدة حينما كانت في أوج قوتها، ولا عجب أن نرى سويًا أنه بانقسام المملكة إلى مملكتين: إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال، ويهوذا وعاصمتها أورشليم في الجنوب، وكيف أصبح البعل إلهًا رسميًا واضحًا غير مستتر في المملكتين وبدون أدنى فرق.

***

وفي نهاية هذا الإيجاز أرجو أن يتذكر القارئ أنني في هذا الكتاب ملتزم حرفيًا بالنصوص التوراتية، وأدير النقاش من داخلها، دون التطرق مطلقًا لماهية الشخصيات النبيلة لأنبياء الله، والذين نزههم الله عن كل تلك الشنائع وكرمهم في قرآنه الكريم.

عقيدة بني إسرائيل في مملكتي الانقسام

إسرائيل ويهوذا

بعد موت سليمان مباشرة، انقسمت المملكة الموحدة إلى دولتين متعاديتين متنافرتين هما: (إسرائيل): وتشمل أسباط الشمال وأسباط شرق الأردن، وعاصمتها "السامرة". ومملكة (يهوذا): في الجنوب وعاصمتها "أورشليم"، ولم يكن هذا الانقسام شيئًا مفاجئًا، بل انعكاسًا لصراع داخلي مستمر له جذوره العرقية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، بل والدينية أيضًا، فى أيام (شاؤل) كان القتال الأهلي على أشده بين الملك شاؤل من سبط بنيامين، والقائد العسكري (داود) الذي كان يحمل لواء سبط يهوذا، وكانت الغلبة لداود الذي وحد المملكة بالقوة، لكنه لم يستطع القضاء على بذور الانفصال، فقد قام ابنه (إبشالوم) بثورة داخلية جمع فيها أسباط إسرائيل المعادية لسبط يهوذا، وقام بطرد أبيه (داود) من أورشليم واحتلها عنوة، ولما تم قتل إبشالوم، قامت ثورة أخرى قادها أحد أقارب الملك شاؤل البنيامينى ضد سلطة داود اليهوذي، وقد تم إخضاع سبط بنيامين والاستيلاء على أملاكه، إلا أن الحقد البنيامينى ظل نارًا تتقد تحت الرماد، وبعدها قام داود بعمل إحصاء لجنود سبط يهوذا في مقابل الأسباط الأخرى، تقديرًا لخطة إخضاع المملكة، وهذا العمل أدانه الرب كما قالت التوراة، فسلط الوباء على شعب إسرائيل، واستمرت المملكة موحدة بقوة السيف تحت عهد سليمان، حتى انقسمت تمامًا على يد رجل يدعى (يربعام) وهو من سبط إفرايم، ذلك السبط القوي الذي ترأس مملكة إسرائيل بأسباطها العشرة في الشمال، في مواجهة سبطي يهوذا القوي وبنيامين المقهور في الجنوب تحت حكم (رحبعام بن سليمان)، ويبدو أن الملك شيشنق فرعون مصر قد ساعد (يربعام) في هذه المواجهة، مما جعل يربعام يكافئ مصر على مجهودها معه بالردة وإلغاء عبادة الإله (يهوه) في مملكته إسرائيل وعاصمتها السامرة، وقام على أثر تلك الردة بسبك تمثالين ضخمين لعجلين من الذهب، ونصبهما في أكبر مدن مملكته إسرائيل (مدينة بيت إيل ومدينة دان)، وظلت تلك المملكة بأسباطها العشرة طوال فترة بقائها عابدة للبعل وعجول الذهب المصرية، وكرسوا لعبادة تلك الأصنام أعدادًا هائلة من الكهنة والعرافين والأنبياء الكذبة، وظل تاريخ تلك المملكة

مليئًا بارتكاب كل أنواع الموبقات بالإضافة إلى عبادة الأصنام، حتى انتهت بالدمار والسبي على يد الآشوريين.

أما عن مملكة يهوذا وبعد الحروب التي كانت بينها وبين مملكة إسرائيل، فقد نتج عنها إفناء سبط بنيامين المقهور تمامًا، تقول التوراة: [لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده] (ملوك الأول ١٢: ٢٠). ولعل ما اقترفته مملكة إسرائيل في الشمال يعكس – لبعض الشيء- كراهية وتحيز أحبار سبط يهوذا الذين عادوا من السبي البابلي وأعادوا كتابة التوراة بشكل مناصر تمامًا لسبط يهوذا على حساب الإدانة الدينية والخلقية الموجهة لباقي الأسباط.

وعمومًا فمملكة يهوذا بدأت بالفعل بعبادة الأصنام منذ عهد الملك سليمان بن داود، أما عن ابنه رحبعام الذي حدث الانقسام الكامل لمملكة إسرائيل الموحدة في أوائل عهده، فلم يكن حاله وحال شعبه بأفضل من حال الآخرين الذين سبقوه ملوكًا وشعوبًا. تقول التوراة: [وعمل يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها. وبنوا هم أيضًا لأنفسهم مرتفعات وأنصابًا وسواري على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضًا مأبونون في الأرض، فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل] (ملوك الأول ١٤: ٢٢-٢٤).

ولتجنب الإطناب في هذا الصدد، نقول إن التوراة لم تستثن من تاريخ ملوك الدولتين أحدًا في تحيزه وتشيعه لعبادة البعل، إلا ربما ملكين من ملوك يهوذا هما: (حزقيا) الذي تقول فيه التوراة: [هو أزال المرتفعات، وكسر التماثيل، وقطع السواري، وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها "نحشتان". على الرب إله إسرائيل اتكل، وبعده لم يكن مثله في جميع ملوك يهوذا ولا في الذين كانوا قبله، والتصق بالرب ولم يحد عنه، بل حفظ وصاياه التي أمر بها الرب موسى، وكان الرب معه، وحيثما كان يخرج كان ينجح. وعصى ملك آشور ولم يتعبد له] (ملوك الثاني١٨: ٤-٧). وعلينا أن نلاحظ جليًا أن (حزقيا) لم يكن له مثيل في سبط يهوذا لا قبله ولا بعده.

والملك الثاني (يوشيا) الذي أعاد ترميم الهيكل وأزال الأصنام من فوقه، وفي عهده تم صياغة وتزوير سفر (التثنية) المنسوب لموسى ذاته، والذي أثبتت بحوث التحليل التاريخية أنه لا يمكن أن ينسب لموسى وما هو إلا محض تزوير.

كما أن التوراة لم تستثن جزئيًا إلا ملك واحد من ملوك إسرائيل هو الملك (ياهو) الذي قام بمذبحة عظيمة في عبدة البعل وكهنتهم، ولكن شهد ذلك العصر ظاهرة أخرى هي ادعاء النبوة بكثرة، فقد قام العشرات منهم بادعاء النبوة، وتشهد التوراة بأن حربًا أو صراعًا قام بين هؤلاء المدعين للنبوة، تم الانتصار لقلة منهم لعوامل كثيرة، أما الباقي المنهزم فقد وصمتهم التوراة بأنهم (أنبياء كذبة)، وأخذت من وصايا الآخرين المنتصرين من أقوالهم وتم ضم كلامهم إلى التوراة. وعمومًا فإن القرآن الكريم لم يتطرق لأي من هؤلاء المدعين بأي نوع من أنواع التكريم أو القداسة إلا باستثناء نبي واحد فقط هو (إيليا) الذي جاهد عبادة البعل كثيرًا، وبشدة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الصافات]. وهذا النبي (إيليا) لم يصل لنا أي سفر أو موعظة واحدة في التوراة كالآخرين المزورين، وهذا شيء مؤكد وغير مستبعد كدأب كتبة التوراة من إهمال الحق وإثبات الباطل.

أما عن الملامح العقائدية للشعب العبراني في كلتا المملكتين، تظهر بجلاء في التوراة وعلى لسان أنبياء التوراة، ولا يمكن أن نحصر تلك الأقوال كاملة في هذا الكتاب؛ لأن هذا الحصر قد يتطلب كتابًا ضخمًا، ولكن أسرد بعض الفترات التي تفيد في المقصد، والتي كتبها أحبارهم بمحض اختيارهم الحر، جاء في التوراة:

* [إذ تصرخين فلينقذك جموعك، ولكن الريح تحملهم كلهم. تأخذهم نفخة. أما المتوكل عليّ فيملك الأرض ويرث جبل قدسي] (إشعياء ٥٧: ١٣).

* [أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذبًا وتبخرون للبعل، ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي باسمي عليه وتقولون: قد أنقذنا. حتى تعملوا كل هذه الرجاسات؟] (إرميا ٧: ٩-١٠).

* [هكذا قال السيد الرب: من أجل أنه قد أنفق نحاسك وانكشفت عورتك بزناك بمحبيك وبكل أصنام رجاساتك، ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها] (حزقيال ١٦: ٣٦).

* [وأعاقبها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخر لهم وتتزين بخزائمها وحليها وتذهب وراء محبيها وتنساني أنا، يقول الرب] (هوشع ٢: ١٣).

* [الذين يحلفون بذنب السامرة، ويقولون: هي إلهك يا دان، وحيه طريقة بئر سبع. فيسقطون ولا يقومون بعد] (عاموس ٨: ١٤).

* [كل هذا من أجل إثم يعقوب، ومن أجل خطية بيت إسرائيل. ما هو ذنب يعقوب؟ أليس هو السامرة؟ وما هي مرتفعات يهوذا؟ أليست هي أورشليم؟] (ميخا ١: ٥).

* [وأمد يدي على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم، وأقطع من هذا المكان بقية البعل، اسم الكماريم، مع الكهنة. والساجدين على السطوح لجند السماء، والساجدين الحالفين بالرب، والحالفين بملكوم، والمرتدين من وراء الرب، والذين لم يطلبوا الرب ولا سألوا عنه] (صفنيا ١: ٤-١).

***

ولا أخفي على القارئ أن هذه النسخة التي أنقل منها هذه الفقرات من الكتاب المقدس هي نسخة منقحة، قد تم فيها بالزيادة والنقصان كلمات لكي يلتبس المعنى الحقيقي على القارئ، كي لا يكون الكلام واضحًا فالكلمات السابقة على لسان الرب وموجهة إلى إسرائيل وكلمة أرجاس في هذه النسخة غير واضح تمامًا ما تقصده الكلمة من معنى، ولكن في نسخة أخرى من الكتاب المقدس مكتوبة بشكلها الصحيح (أصنام)، وهلم جرا. ولتوضيح ما أقصد فسوف أورد نفس الفقرات السابقة من نسخة أخرى للكتاب المقدس كالتالي:

* [عندما تستغيثون، فلتنقذكم مجموعات أصنامكم! إن الريح تحملها جميعًا] (إشعياء٥٧:١٣).

* [أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون زورًا وتبخرون للبعل، وتضلون وراء الأوثان التي لم تعرفها، ثم تمثلون في حضرتي في هذا الهيكل] (إرميا ٧: ٩-١٠).

* [من حيث أنك أنفقت مالك وكشفت عن عريك في فواحشك لعشاقك ولسائر أصنامك الممقوتة] (حزقيال ١٦: ٣٦).

* [وأعاقبها على أيام احتفالاتها بآلهة البعل، حيث أحرقت لها البخور] (هوشع ٢: ١٣).

* [أما الذين يقسمون بأوثان السامرة قائلين: "حي إلهك يا دان، وهي معبود بئر سبع، هؤلاء يسقطون ولا ينهضون أبدًا ثانية] (عاموس ٨: ١٤).

* [... فما هو ذنب يعقوب؟ أليس هو أصنام السامرة؟ وما هي خطيئة يهوذا ؟ أليست هي أوثان أورشليم؟] (ميخا ١: ٥).

* [يقول الرب: أمد يدي لأعاقب يهوذا، وكل أهل أورشليم، وأفنى من هذا الموضح بقية عبدة البعل، وكل كهنة الوثن، والذين يصعدون إلى السطوح للسجود لكواكب السماء، والذين يحثون عابدين الرب حالفين باسمه، وباسم ملكوم أيضًا ...] (صفينا ١: ٤-٥).

وإلى هنا أترك للقارئ الكريم والذي يدين بأي ديانة -حتى ولو كان يهوديًا- الحكم العادل والرأي الصريح الواضح، ومن ثم أتوجه إلى القارئ بسؤال: هل بعد تفريغ تلك الوثيقة من مضمونها اللاهوتي يتبقى منها شيء يصلح أساسًا لأية فكرة سياسية؟

***

ويتبقى لنا سؤالًا مهمًا: ماذا عن كهنة وأنبياء التوارة الذين ألفوا التوراة الحالية والذين هم متعصبون بشدة تصل إلى درجة التطرف في عبادة الإله (يهوه)؟

والإجابة في الحقيقة أن هؤلاء قاموا بأغرب ما حدث في التاريخ الديني البشري كله عند صياغتهم لصورة الرب (يهوه)، حيث إنهم في مواجهة المنظومات الفكرية الوثنية الخالصة المتعلقة بالديانات السومرية والكنعانية، ومع رغبتهم الملحة في الاختلاف عنهم، حفاظًا على التميّز العرقي القبلي، ذلك التميز الذي كان يتخذ من شكل الديانة ونوع الإله شعارًا تنفرد به المجموعات الإثنية، وتلتف دائمًا حوله، في الوقت الذي أهملت وحرفت وضاعت النصوص الصحيحة السماوية والتي كتبها الإله بذاته، ومع عدم توافر المصادر المتعلقة بتكوين تصور خاص بهم عن الإله في شكله المجرد المغاير تمامًا للتجسد الطوطمي لأصنام بعل وملكوم ومردوخ ونبو وعتشاروت وغيرها من آلهة آسيا، لم يجدوا بدًا من اللجوء لمنظومة المصريون الفكرية الدينية، والذين هم أعتى أعداء بني إسرائيل دينيًا، هؤلاء المصريون الذين عاشوا في وسطهم قرونًا طويلة، وتأثروا بأفكارهم إلى حد بعيد، هذه الأفكار التي كانت راسخة قبل إخناتون بزمن بعيد، واستمرت بعده في صفات (آمون) بدلاً من (أتون). فانتحلوا صفات الإله (ست) إله الشر، أو عدوه الإله، أو الشيطان، والذي صار لاحقًا إلهًا حربيًا عبده ملوك الرعامسة بجانب آلهة المصريين آمون وأوزير، بل والأكثر غرابة مع الإله الآسيوي (بعل) ذاته، هؤلاء القوم (كتبة التوراة) والكهنة قد ارتأى لهم مزج كل تلك الصفات الإلهية في إله واحد هو الإله (يهوه).

ذلك الإله الذي يجمع خصائص تلك الآلهة كلها من قوة وبطش وقدرة ورحمة ومشيئة، وتجلي بالنبوءات على الرائين أو الأنبياء، وكذلك الوحي، والأقانيم الإلهية والبشرية، مع كل خصائص الطقوس من معابد متدرجة القدسية، ومراتب ومهام وأردية كهنوتية، وأساليب القرابين، والصلوات والترانيم، آملين في الوصول إلى نفس التأثير الاجتماعي الديني في مصر.

يقول زينون كاسيدوفسكي في كتابه (الواقع والأسطورة في التورات)[1] حول هذا المعنى ما نصه، ص١١٨: (إنه بات مؤكدًا أن أقدم القوانين الإسرائيلية التي جاءت في كتاب

(١) التوراة والتورية: أسفار موسى الخمسة معرب توره بالعبرانية ومعناها: شريعة ووصية وجمعها تورات وتوريات، وتطلق على العهد القديم كله، وربما أطلقت على مجموع العهدين. قاموس محيط المحيط، بطرس البستاني.

العهد القديم اقتبست عن شرائع الشعوب القديمة الأخرى وصيغت وفق ما رآه الأحبار اليهود مناسبًا. وهذا ما اكتشفه العالم الألماني (أ. آلت) في كتابه (منابع القانون الإسرائيلي) حيث بين أن هذا الأخير أخذ مباشرة عن شرائع حمورابي البابلية وعن القوانين الحثية والآشورية والمصرية والكنعانية. وحتى الوصايا العشرة ليست إبداعًا إسرائيليًا صرف. فقد أجرى المؤرخ الإيطالي جوزيف ريتشيوتي في كتابه (تاريخ إسرائيل) مقارنة دقيقة بينها وبين بعض النصوص القديمة، واكتشف أن هناك تشابه مذهل بين الوصايا العشر وكتاب الموتى المصري، وبينها وبين النص الطقسي البابلي شوربو. وهكذا يكون محررو التورات قد استندوا هنا أيضًا إلى تراث الرافدين ومصر) أهـ.

ومن الهام جدًا هنا أن أؤكد أن هذا التحليل الذي وصلت إليه حسب رؤيتي التاريخية الخاصة، إنما يصف ما قد تم على يد البشر بمعزل كامل عن الرسالات الإلهية الصحيحة، وأن هذه التطورات هي التي فرضت التحريف والتبديل والتغيير والتزييف بل والإخفاء في تلك الكتب والرسالات، مما أبعدها جوهريًا عن منابعها الأصلية التي كانت تتنزل من عند الله تعالى.

وتلك الأفعال إنما جرت في محاولة من هؤلاء القوم لإحداث تواؤم وترابط بين محتوى تلك الرسالات إبان تنزلها، وبين الرؤى البشرية المرتبطة بالشكل الثقافي والمصالح العرقية، حسب رؤية القيادات الدينية والسياسية والاجتماعية على مر العصور، بشكل أخل تراكميًا بمحتوى هذه الرسالات، بل وأفرغها من مضمونها الروحاني والتشريعي على حد سواء.

أما عن أسباب سقوط الإسرائيليين المستمر في هاوية العبادات الوثنية، وبصفة خاصة المتعلقة منها بالعبادات السامية كالفينيقية والكنعانية والسومرية، مما أدى عمليًا لاختفاء عبادة التوحيد – المشوهة أيضًا- بصورة شبه كاملة من تاريخ القبائل، أجد أنه من المناسب ثانية أن أستعين بالتحليل التاريخي الذي أورده المؤرخ الروسي زينون كاسيدوفسكي في كتاب (الواقع والأسطورة في التورات) ص١٦٢ وما بعدها. يقول الكاتب:

أما الأمر الذي شكّل خطرًا حقيقيًا على الإسرائيليين بحيث تعدت درجة جديته مسألة التبعية السياسية، فهو السرعة والسهولة اللتان خضع بهما الإسرائيليون للتأثير الكنعاني الثقافي والديني، الأمر الذي هددهم بفقدان وجههم الحضاري. ولا يعطينا كتاب القضاة جوابًا شافيًا عن سبب حدوث ذلك. لقد صور محررو التورات الكنعانيين شعبًا بربريًا فاسقًا، عبادته كلها فجور ورذيلة وفساد. وفي هذا السياق برز السؤال التالي: كيف سمحت القبائل الإسرائيلية لنفسها أن تسقط في مستنقع الرذيلة بتلك البساطة كلها وهي التي نشأت على الالتزام بضوابط السلوك الأخلاقي التي فرضتها وصايا موسى؟!.

لقد كانت الإجابة على هذا السؤال صعبة طالما اقتصرت معلوماتنا عن الكنعانيين على أخبار التورات عنهم، ولم يحدث أي تطور في هذا الشأن إلا بعد الاكتشافات الأثرية في فلسطين. حيث أظهرت تلك الاكتشافات أن الكنعانيين أنشئوا في فلسطين حضارة مادية راقية لم تقصّر عن الحضارات التي عرفتها في بلاد الرافدين ومصر وسورية. فقد عرفت المدن الكنعانية الكثيرة بمنشآتها العامة وقصورها وعلاقاتها التجارية الواسعة مع الدول الأخرى ومهارة حرفييها. وإلى جانب الزراعة وتربية الحيوانات ازدهرت هنا البستنة أيضًا. فقد انتشرت في أرض الكنعانيين بساتين النخير وكروم الزيتون والرمان والتين والعنب. وقد انتشرت كروم هذا الأخير على سفوح الجبال أما في الوديان فقد زرعوا مختلف أصناف الخضار ... وفي أوغاريت أظهرت التنقيبات أن الديانة الكنعانية لم تتصف باللاأخلاقية التي حاول محررو التورات إلصاقها بها. فعالم الآلهة التي صورته لنا الوثائق الأوغاريتية هو عالم غني ورائع برسومه ومنحوتاته ومليء بالشعر ولحظات التوتر الدرامية. وتتصف آلهته بالصفات الإنسانية كلها: فهي تحب وتكره، وتتقاتل مع بعضها البعض، وتغني وتموت. لقد عبرت تلك الديانة – دون ريب- عن فهم إنسان ذلك العصر لسر الكون الخفي وعكست درامية الحياة الإنسانية بصداماتها الفردية والاجتماعية.

كان الإله (إيل) هو كبير آلهة فينيقية وكان إلهًا سفاحًا كأنما تسيطر عليه رغبة لا تقاوم للتدمير، ولكن كان في الوقت نفسه إلهًا طيبًا وعطوفًا يحب عمل الخير. غير أن

بعل هو الذي حظى بأعظم سمات الحب والاحترام، فهو إله المحصول والمطر وحامي القطعان. وتعد زوجته عشترتا، وهي إله الحب والخصب، من أشهر آلهة العالم القديم كلها. وقد عرفت في كنعان باسم عشيرة.

لقد كان بعل – من حيث المنشأ إلهًا سومريًا- آكاديًا- وعرف لدى مختلف شعوب الشرق بأسماء مختلفة. فقد عرفه الفينيقون باسم فاموز (تموز) أو إشمون. ونراه في مصر تحت اسم أوزيريسي، وعبده اليونان على صورة الشاب الخالد أدونيس. ويخبرنا حزقيال النبي أن عبادة فاموز كانت لا تزال قائمة حتى عام ٥٩٠ ق.م، وفي فناء معبد أورشليم نفسه.

لقد ارتبطت العبادات الكنعانية ارتباطًا وثيقًا بمواسم الأعمال الزراعية وحاولت أن تفسر سر ولادة الطبيعة وموتها بصورة دورية منتظمة، وهذا هو السبب الرئيس الذي يكمن خلف سهولة تحول الإسرائيليين إليها. فبعد أن تركوا حياة التنقل وتحولوا إلى الاستقرار وانتقلوا بالتالي من ممارسة الرعي إلى الأعمال الزراعية كان ينبغي عليهم أن يتعلموا من الكنعانيين أصول العمل في الحقول ، ويتعلموا منهم أيضًا تأدية فروض العبادة وطقوس التبجيل للآلهة المحلية كي تضمن لهم محصولًا جيدًا.

لقد أحس الفلاح الإسرائيلي بحاجة عميقة إلى دين يساعده في حياته اليومية. إضافة إلى ذلك كانت الاحتفالات الدينية المرتبطة بعبادة بعل وعشتارتا مليئة بالمشاهد والطقوس الرائعة ولذلك كان تأثيرها على طبيعته البسيطة وخياله الساذج أقوى بكثير من ديانة موسى البوريتانية.

ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى أن الدوافع الاقتصادية والسيكولوجية التي قامت في أساس ذلك التراجع الديني أدت إلى عجز اتباع اليهودية عن استئصال عبادة الأوثان من الأوساط الإسرائيلية، حيث استمرت تلك العبادة في العصور كلها. فنقرأ في كتاب القضاة أن الإسرائيليين [عادوا يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا بعل وعشتارتا وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه] (قضاة ١٠: ٦).

إذًا لم يشأ الفلاح الإسرائيلي، بل لم يكن بمقدوره أن يترك عبادة آلهة كنعان طالما أنه يحرث الأرض ويعمل بها. ومع أنه عاد إلى عبادة يهوه في بعض الأحيان، غير أن آلهة الزراعة الكنعانية كانت أقرب إليه بكثير. فهي الآلهة التي تسود أرض الكنعانيين منذ القدم.

يجب ألا يغيب عن بالنا أن الإسرائيليين عندما كانوا يعبدون آلهة كنعان لم يتخلوا أبدًا تخليًا نهائيًا عن إله قبيلتهم. ففي كثير من المناطق كان مذبحا يهوه وبعل يتجاوران. وبنى بعض ملوك إسرائيل (آخاب وسليمان مثلا) معابد لآلهة كنعان ولكنهما لم يتخليا عن عبادة يهوه. إذًا لقد كانت تلك هي تعددية الآلهة بعينها. وقد شغل يهوه فيها مكانة تعلو أو تتراجع حسب الظروف السائدة.

لا ريب أنه كانت توجد في تلك المرحلة من مراحل البلبلة العظيمة جماعات يهوية متزمتة لم تسمح لنفسها أن تتأثر بموجة الارتداد عن دين موسى بل هبت أكثر من مرة للدفاع عنه. فعندما اضطهدت إيزابيل، زوجة الملك آخاب ، الأنبياء اليهويين [أخذ عوبديا الخادم مائة نبي وقسموا إلى مجموعتين أخفى كلا منهما في مغارة وأعالهم بخبز وماء] (ملوك الأول ١٨ : ٤).

ولم يستطع الإسرائيليون أن يرتقوا بدينهم إلى مستوى الوحدانية الأخلاقية الصرف إلا تحت تأثير التعاليم الأخلاقية التي جاء بها الأنبياء إذ غدا يهوه في عقائدهم إلهًا واحدًا للكون كله. وهكذا لم تظهر الوحدانية اليهودية القديمة إلا في زمن متأخر نسبيًا، ونتيجة ختامية لطريق تاريخية صعبة سلكها الإسرائيليون عبر التجوال والمعاناة والنكبات السياسية] انتهى.

في النهاية .. وعن طريق الدراسة العميقة والمتعمقة للمراحل التاريخية للشعب الإسرائيلي، نجد أنفسنا مضطرين للوصول إلى استنتاج حتمي مفاده أن أشرّ أيام شعب إسرائيل وأحلك صفحاته كانت عندما ينصاع – لظروف استثنائية- لشريعة الإله (يهوه)، وليس لتأثير الآلهة الأخرى الموصوفة بالوثنية، والتي هي أكثر مسالمة، وأرقى فلسفة في الحياة.

من الجلي الآن، وبعد استعراض الآراء والنظريات التاريخية المفسرة لقصة بني إسرائيل (التوراتية)، أن نستنج أن المؤرخين يعتبرون قصة بني إسرائيل وبالذات في جزئها المختص بالدخول إلى مصر، والبقاء فيها لقرون ثم الخروج منها، هو نوع من الأدبيات الفولكلورية وخيالات القصص الشعبي، وأن التأثير المصري والواضح على المنظومة الفكرية لتلك القبائل لم يتم بصورة الاحتكاك المباشر، بل عن طريق النقل بواسطة الفينيقيين أو الكنعانيين وبطرق غير مباشرة، وهذا الاتجاه التاريخي لخصه أرنولد توينبي بقوله: (ولنا أن نخمن أن الأمثال المصرية هذه وصلت إلى الإسرائيليين بواسطة الفينيقيين)، كما أورد د. حسان إسحاق في تعليقه على قصة يوسف التوراتية: (ينظر عدد من الباحثين الغربيين إلى قصة يوسف والاثنى عشر شيخًا على أنها إعادة صياغة لبعض الأساطير اليهودية القبلية القديمة، أعدت في القرن التاسع والثامن قبل الميلاد، في مدينة أورشليم، بهدف إحداث تأثير أيديولوجي على القبائل التي انفصلت عن الدولة اليهودية بعد موت سليمان، وأسست دولة إسرائيل في الشمال) انتهى.

وهناك اتجاه تاريخي آخر ينادي بوجود تأثير مصري مباشر ناتج عن احتكاك بني إسرائيل بالمصريين إبان فترة وجودهم في مصر ولعدة قرون، وهذا الاتجاه يبدو مترددًا وضعيفًا وغير واثق تمامًا، مما قد نلمحه في ثنايات السطور من كتاب الواقع والأسطورة في التورات للمؤرخ زينون كاسيدوفيسكي ص٨١:

(قصارى القول أن المادة التي استخدمت في بناء مسرح الأحداث التي جرت في مصر اجتازت امتحان الأبحاث العلمية الحديثة بنجاح تام. ونعتقد أنه ليس مفيدًا أن نهدر مزيدًا من الوقت والجهد لإثبات حقيقة وجود يوسف كشخصية تاريخية أو عدم وجوده فالأمر الأهم والذي لا يثير أي شك هو أن أسطورة يوسف ظهرت في مصر نفسها. وكان مؤلفوها يعرفون هذه البلاد معرفة في غاية الدقة وعاشوا فيها ردحًا طويلاً من الزمن. ونجد في هذه القرينة تأكيدًا على أن فرعًا ما من فروع اليهود – قد تكون عشيرة يعقوب- هاجر فعلاً إلى مصر وسكن منطقة دلتا النيل في أرض جاسان الخصبة. ولا يستبعد أيضًا أن تكون قصة يوسف صدى لحدث تاريخي واقعي تمثل في أن

أحد اليهود باسم يوسف قد بلغ شأنًا كبيرًا في قصر فرعون. ثم نسجت الأسطورة إياها حوله فيما بعد كتعبير عن افتخار اليهود بهذا الجد. ولكن إذا كان الأمر كذلك فعلا، فلماذا لم تأت أي وثيقة مصرية على ذكر يوسف هذا؟ فالمعروف عن الوثائق المصرية أنها تحوي أدق التفاصيل ووجود سامي في قمة السلطة كان حدثًا في غاية الجدية وأكبر بكثير من أن يهمل. وهذا الواقع بالذات هو الذي أثار الشكوك حول واقعية وجود شخصية يوسف) انتهى.

ومن المؤكد منطقيًا أن هناك عامل قوي قاد إلى هذا الاتجاه وهو أن كل الأبحاث العلمية التي أجريت على الأسفار الخمسة الأولى في التوراة، والمنسوبة لموسى ذاته، قد أثبتت أنها كتبت في مرحلة لاحقة جدًا عن موت موسى، قدرها المؤرخون بعشرة قرون على الأقل، وربما في عهد سليمان، أو حقبة الأسر أو السبي البابلي، ومن هنا فإن التأثير الكنعاني – الفينيقي- كان حسب المنطق أقوى وأظهر على أفكار وثقافة شعب إسرائيل من التأثير المصري الأبعد تاريخيًا وجغرافيًا حين ذاك، مما أدى بالمؤرخين إلى دفع المقارنات في الوثائق الكنعانية والعراقية أكثر من الوثائق المصرية، وقد غفل هؤلاء المؤرخون إلى أن النصوص التوراتية الحالية ثبت أيضًا أن الكثير منها قد نقل عن وثائق أقدم مجهولة ومنسوخة بشكل غير منظم أو غير منهجي، ويمكن تقسيمها لمراحل تاريخية متعددة ومتباعدة، ولا يمكن بأي حال إنكار وجود تأثير مصري قوي فيها.

وعلى العموم، فقد كانت النتيجة لكل تلك العوامل هي أن تأثير الثقافة الدينية المصرية القديمة على الديانة اليهودية بشكلها الحالي، لم يتطرق له الباحثون بجدية إلا في الجزئيات الواضحة وغير القابلة للإنكار، ومن هنا فإن الهدف من هذه السلسلة هو تأثير المعطيات الحضارية والثقافية والدينية المصرية على الثقافة والديانة اليهودية والتي ليست لها أية حضارة على الإطلاق، وتأثيرها أيضًا على كتابه المقدس (التوراة) المتواجد بين أيدينا حاليًا، والتي لا نشك على الإطلاق في أنها ليست التوراة الأصلية الحقيقية التي ضاعت واندثرت بإهمال بنى إسرائيل لها أولا، ثم بعدة كوارث متتالية ثانيًا، تم فيها إحراق وتدمير كافة الوثائق الأصلية المحتوية على نصوصها، وما تبع ذلك

من إعادة كتابتها عدة مرات بشكل مغاير تمامًا للأصول الصحيحة، ولأسباب سياسية بحتة.

***

في البداية نذكر بأن التوراة ذاتها تكفلت بإيضاح أن قصة دخول وبقاء ثم خروج بني إسرائيل من مصر هي قصة حقيقية، وقد أكد حدوثها القرآن الكريم، وقد تمت صياغتها في التوراة بطريقة روائية تمتلئ بالحيل الأدبية والكهنوتية وأساطير الخيال الشعبي، استلهامًا لقصة قدوم وبقاء ثم خروج الهكسوس من مصر، ومن خلال المحاجة والفهم والذي برهنّا عليهما في مقدمة الكتاب، يمكننا استحضار وفهم الوثائق التاريخية المادية الفرعونية التي تتحدث عن قصة بني إسرائيل في مصر، وبذلك تنتفي مقولة غياب تلك القصة الدينية في المكتشفات الوثائقية الفرعونية كليًا؛ حيث يمكن رؤية معالمها خلف ستار قصص المصريين مع العامر والخبيرو والستيتو والطاعون والأنجاس بل والهكسوس. كما تتكامل أيضًا المعلومات التاريخية الضائعة عن حقبة الهكسوس في مصر والتي يزعم المؤرخون أن معظم وثائقها قد ضاعت غالباً عن طريق الإتلاف العمدي من جانب المصريين الذين مقتوا هذا العهد وبغضوا بقاء ذكراه، هذا على الجانب المصري ووثائقه.

ومن العوامل التي ساعدت على التعتيم التاريخي لتلك المرحلة في الطرف المقابل – الطرف الإسرائيلي– فإن ذلك يرجع إلى أن قصة بني إسرائيل في مصر كما أوردتها التوراة هي قصة أحادية النظرة، شديدة التعصب، طبقًا للمقاييس الإسرائيلية المعروفة، فهي تعطينا وجهة النظر الإسرائيلية فقط، بل وداخل وسط كثيف من الغموض؛ حيث إنه لا يمكننا بسذاجة تقبل فكرة توراتية تصور بني إسرائيل إبان وجودهم في مصر كانوا قوم سلام أو حماة للفضيلة، بكل القياسات التاريخية والمنطقية والإثنية بل حتى والتوراتية، كما لا يمكننا اعتبار المصريين أهل الحضارة المشهود لها بالتسامح وسهولة التمازج والاتساع الثقافي واحترام قيمة العدل والمتمثلة في الإلهة (ماعت) إلهة العدل، كأقوام غلاظ القلوب لا نهج لهم إلا العسف والاستعباد تجاه الأغيار، فعمومًا فإن التوراة وسطورها الطويلة تعطينا مثلاً دمويًا وحشيًا حول معاملة بني إسرائيل للأغيار

والأسرى المدنيين يتعدى ما زعموه عن خطايا المصريين تجاههم في التوراة أيضًا، وعلى الرغم من ذلك فإن الثوب الكهنوتي التوراتي يضفي البركة على أفعالهم ويصب اللعنات على ما قام به حكام مصر وليس شعبها تجاههم في فترة زمنية وجيزة، تعد أحلك فترات التاريخ المصري ذاته، ولسنا هنا في مجال الدفاع عما قام به الفرعون وحاشيته تجاه بني إسرائيل في تلك الفترة، فتلك الأعمال والأفعال شائنة ومدانة بلا أدنى شك، وقد نال هؤلاء الحكام جزاؤهم الإلهي العادل عليها، وتقبله المصريون حتى يومنا هذا بكل الشجاعة والأمانة مع النفس، أما هم فقد حاق بهم العقاب الإلهي نتيجة وثنيتهم الدائمة والتي لم تتوقف أو تنقطع أبدًا- حسب ما ادعته التوراة ذاتها- مقرونة بكل أعمال الوحشية والبربرية والتدني الحضاري والإنساني على حد سواء، ومع ذلك وبعد آلاف السنين حتى يومنا هذا في القرن الحادي والعشرين من الألفية الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح، ما زالوا يرفضون تقبل نتيجة أفعالهم، ويملئون الدنيا صراخًا، وكأن الله تعالى قد خلق العالم ليقع تحت العسف والظلم الإسرائيلي، بلا ردة فعل من الله أو حتى الناس.

وقد لخص هذا الاتجاه الفكري الإسرائيلي أحادي النظرة، الأب متى المسكين في كتابه تاريخ إسرائيل، ص٣٥٧، ما نصه: (لقد ظن شعب إسرائيل أن مجيء يوم الرب على أساس زمني كنهاية لزمن وبداية لزمن آخر، حيث يكون فيه تحطيم أعدائهم الذين ضايقوهم ونهاية كل تجبر الأمم؛ حيث يخضع الكل تحت سلطان مملكة إسرائيل بعنق العبودية والمذلة، حتى نظام العالم نفسه يخضع لهم حينما يعلن الله مجده لهم، وبسبب هذه النظرة الخطرة المزيفة نحو نهاية الأمور والحوادث والعالم، انبرى الأنبياء لتخطئة هذه النظرة بعنف وشدة، وأكدوا لهم أن نهاية الأمور الزمانية هو بعينه استعلان الله نفسه، واستعلان الله يستحيل أن يكون إلا على المستوى الأخلاقي الكامل، واستعلان الحق الروحي الذي سيدين به إسرائيل نفسها قبل أعدائها، الذي بمقتضاه وعلى نوره ستحاكم كل نفس على كل الشرور والقبائح والعادات النجسة التي اقترفتها، فيصير يوم الرب يوم خراب وليس يوم خلاص لها) انتهى. وهذا ما قاله الأب متى المسكين ومن الواضح أنها النظرة المسيحية لهذا الفكر التوراتي الإسرائيلي.

ويكفينا لكي ندلل على أحادية النظرة في القصة التوراتية إبان حقبة الخروج من مصر أن نقارن بينها وبين القصة القرآنية والتي تعد منطقية بكل المقاييس، فالقصة التوراتية تروي لنا ما حدث إسرائيليًا فقط، ولا تشير مطلقًا إلى ما كان يحدث على الجانب الآخر، الذي يظهر أفراده كعامل هامشي بلا روح ولا فكر ولا قضية، أما القصة القرآنية فهي ترينا بوضوح ما كان يجري في البلاط الفرعوني المصري، وترسم لنا ملامح شخصية ونفسية الفرعون، كما ترسم لنا أسلوب التعامل مع الوزراء والمستشارين في البلاط الملكي والذي أوضحت حوارات فرعون وهامان في آيات القرآن الكريم، كما أن اسم (هامان) مشتق من اسم الإله (آمون) وهي كلمة تدلل عل مدى تغلغل سلطة الكهنة في السياسة حينذاك، وهذه الشخصية المصرية غائبة تمامًا في القصة التوراتية، كما ترينا القصة القرآنية أيضًا وجود معارضة مصرية قوية لاتجاهات الفرعون السياسية والدينية مما تمثل في جزئية الرجل من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، بل إن وجود شخصية مثل (امرأة فرعون) أقرب المقربين إلى الملك المصري، بكل ما تحمله من الرفض والمعارضة لفكر زوجها الحاكم المطلق، لهو دلالة على وجود انقسام فكري وسياسي تجاه قضايا الدولة.

كما أن القصة القرآنية تكفلت بإيضاح الرأي السياسي الفرعوني الدافع لاتخاذ هذا الموقف من حيث مخاوف الانقلاب الديني والنهج الاجتماعي أولاً، إضافة إلى مخاوف تهديد الأمن القومي بالإخراج (إخراج المصريين وليس العبرانيين) من الأرض وإعلان الحرب، ربما بالتحالف مع أعداء البلاد، على الجبهة الشرقية، كما أثبتت النصوص الفرعونية تمامًا، وكما أقرت أيضًا التوراة بإيجاز قائلة: [ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه: "هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم لئلا ينمو، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض"] (الخروج ١ : ٨٠-١٠).

وقال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ [طه]، وقال عز شأنه: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه]. والآية الأخيرة كانت على لسان فرعون مخاطبًا موسى تأكيدًا للمعنى السابق من الآية قبلها هنا، كما أن القصة التوراتية لم تظهر

لنا الصراع النفسي الإنساني لدى الفرعون الذي منعته غطرسته ومصالحه الشخصية بل والمصالح الوطنية أيضًا من الامتثال للحق، بل كانت تصر على أن الإله هو المحرك لقسوة قلب الفرعون لأنه يريد عقابه، هكذا، كما أن القصة التوراتية لا ترسم لنا أية ملامح عن شخصية موسى عليه السلام ذاته، مما يظهر بوضوح في القصة القرآنية، ناهيك عن المغالطات غير المنطقية، بل وغير الدينية أيضًا لشخصية (قارون) – التي لم ترد في التوراة مطلقًا- إنما ترينا ملامح التركيب الطبقي الاجتماعي المصري، وأن الثراء والنفوذ لم يكن مقتصرًا على أهل البلاد فقط، بل إن الإسرائيليين كان لهم نصيب في أرقى الطبقات الاجتماعية في مصر حينذاك، كما أثبتت الوثائق التاريخية تمامًا.

أما عن الناحية الروحية في القصة فإن القصة التوراتية لا يظهر فيها محور وعظي أو قيمي اللهم إلا أن الإله قد رق لشعبه المختار بعد طول نسيان – حاشا الله- فقد قرر أن يحررهم من يد مسترقيهم، وأن يدمر أمامهم هذا الشعب الآخر بأرضه وأرزاقه وأبكار أبنائه وجنوده، ليس هذا وحسب بل وأبكار البهائم أيضًا، كما قرر أيضًا أن يقود بني إسرائيل شعبه المختار بنفسه إلى أرض جديدة، يبيدون أبناءها ليحلوا محلهم وفاءً لعهد قطعه الإله على نفسه لأجدادهم، وظل قرونًا لا يتحقق.

وبالمقارنة مع القرآن في تلك النقطة بالذات، فيكفينا أن الله تعالى قد اتخذ من قصة بني إسرائيل المثال الأكبر والأوضح بطول القرآن الكريم، لاستخراج العبر والمواعظ، وإرساء القيم، والإشارة للمنهج الإلهي في التعامل مع البشر، بل ويمكننا القول بأن معالم تلك القصة كانت هي السند للغالبية العظمى من نصوص التشريع الإسلامي، كما أقرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وعمومًا فإن العديد من المقارنات بين القصتين التوراتية والقرآنية سوف يرد إن شاء الله في ثنايا هذه السلسلة.

***

***نعود لنقطتنا الأولى وهي أن قصة بني إسرائيل في مصر حقيقية، هي قصة الصراع المصري- الهكسوسي، والتي تمت صياغتها توراتيًا بشكل أدبي فولكلوري وتحت ضوابط كهنوتية، ضيقة النظرة، ومتعصبة الاتجاه، مارسها الكهنة كتاب التوراة الحالية لأقصى الحدود.

أما عن تفاصيل تلك القصة وظهور التأثير المصري الشديد على الكتابات التوراتية والديانة اليهودية ككل، فذلك ما سنعرض له هنا.

***

في البداية وقبل أن نطرح فرضياتنا، ينبغي أن نستعرض طائفة مما أثبته المؤرخون من علاقات اقتباس في التوراة مقارنة بأصول مصرية تم الكشف عنها، ومن الملاحظ أن تلك الدراسات لم تأخذ اهتمامًا جديًا، وأنها غالبا ما انصبت على القوالب الشعرية وبعض الأمثال والحكم، ولم تتطرق بعمق للتصورات الفكرية الأساسية في الديانة مثل طبيعة الإله وغيرها، مما دعا بعض المؤرخين مثل زينون كاسيدوفسكي أن يقارن مثلا بين الإله يهوه التوراتي، وإله الحرب عند المديانيين، غير مدرك أن هذا الإله المديانى إنما هو الإله (سوتخ) بعينه، هذا الإله الهكسوسي الناتج عن المزج بين خصائص إله الشر والحرب المصري (ست) مع الإله الكنعاني (بعل)، وهذا الإله ظل يعبده الهكسوس المسيطرون على منطقة مديان، وما انقطعت عبادته أبدًا في الأقاليم الشرقية من دلتا مصر، أثناء حكم ملوك الهكسوس، أو بعد تحطيم سلطتهم السياسية وبقاء فلولهم في تلك المنطقة بعد حرب أحمس الأول وقيام الدولة الحديثة، بل إن (سوتخ)، و(ست)، و(بعل) في حد ذاتها أصبحت آلهة مصرية مبجلة تعبد بجوار آلهة مصر العليا على أيام الرعامسة الذين ينتسبون عرقيًا إلى حد ما لقبائل الهكسوس الآسيوية، وعلى العموم فإن منطقة مديان كانت خاضعة طوال حقب التاريخ القديم للحكم المصري المباشر أيًّا كان شكله، وما خرجت عن سلطة المصريين إلا في فترات زمنية قصيرة كان الانحلال والتفسخ يأخذ فيها مأخذه من هيبة الحكم في مصر، مثل فترة الخروج الإسرائيلي، تلك التي سبقها لجوء موسى عليه السلام لكاهن مدين هاربًا من وجه فرعون حسب التعبير التوراتي، مما يعني منطقيًا أن مديان كانت حينذاك خارج سيطرة مصر، وهو ما لا يحدث إلا في فترات تاريخية نادرة، وهذا في حد ذاته، مع شواهد أخرى كثيرة سنوضحها لاحقًا في هذه السلسلة ينفي تمامًا أن يكون الخروج الإسرائيلي قد حدث في زمن (رمسيس الثاني) أو ابنه (مرنبتاح) أو غيرهما من الفراعنة الأقوياء الذين تم اقتراحهم كفراعنة للخروج من قبل المؤرخين أو اللاهوتيين على حد سواء.

كما أن تلك الدراسات السابقة على الرغم من أنها درست وحللت وفندت كل فرضيات الأحداث التاريخية التوراتية، وانتهت بإثبات العلاقة بين تلك الأحداث الإسرائيلية المزعومة، وبين كثير من الأساطير والأحداث الفعلية المنهوبة من تراث الأمم الأخرى، مثل الوصف التوراتي لشكل الخلق سداسي الأيام مع ملحمة (جلجامش) البابلية، وكذا قصة شمشون التي هي مسخ مشوه لأسطورة هرقل الإغريقية، وقصة يوسف مع زوجة سيده عزيز مصر والذي يدعى (فوطيفار) كاهن معبد أون مع قصة مصرية شهيرة، وقصة موسى مع قصة سنوحي، وقصة حرب إسرائيل مع قبيلة بنيامين مقارنة بقصة تدمير قوم لوط، بل ومقارنة قصة المسيح الإنجيلية مع أساطير الإله (أوزير) المصري، وبعل البابلي – الكنعاني، وميثرا الفارسي، وكرشنا الهندي، وبوذا الآسيوي... ونحو ذلك مع اقتباسات تكاد تقارب حد النقل الحرفي مع بعض التصرف والخيال الشعبي الرعوي اليهودي، إلا أن تلك الدراسات لم تحاول الإجابة على السؤال المحوري المتعلق بالقصة التوراتية عن صراع موسى مع المصريين بما واكبه من أحداث الخروج ثم العبور في نهر الأردن، واحتلال أرض كنعان، وهل تلك الأحداث وقائع تاريخية حقيقية؟ أم هي كغيرها إلهام خيال شعبي واقتباس ديني؟

***

وفي الواقع -كما سنرى – فإننا نؤمن بأن تلك الأحداث وقعت بالفعل، وأن وقائعها قد أشير لها بشكل أو بآخر في السجلات الوثائقية المصرية نفسها، وهذا ما سنعود إليه موضحين وقائع تلك الحروب، بل ومحددين لحقبة الخروج وفرعون الخروج ذاته .. إلا أن الصياغة الأدبية التأريخية لتلك الوقائع في التوراة كانت انتحالاً واقتباساً واضحًا من قصص غزوات وحروب ملوك الرعامسة، تلك التي سجلت كوثائق رسمية على جدران المعابد، وأرسلت نسخ منها لكل مناطق الدولة، مع القصائد الشعرية التسجيلية التي وصفت تلك الحروب.

ونحب أن نوضح بداية أن مذهبنا هذا لا يتعارض مطلقًا مع الاعتقاد الديني الإسلامي؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز أن تلك القصص التوراتية الحالية هي قصص مزورة ومحرفة، كما أخبرنا أيضًا أن توراة موسى كانت هي

(الشريعة)، ولم تكن مطلقًا سطور تأريخ لأحداث الشعب الإسرائيلي، تلك الأحداث التي كتبت بأقلام كهنوتية بعد وقوعها بقرون طويلة، وهكذا فإن نظرتنا التاريخية حول ماديات وصياغة تلك الأحداث التوراتية لن تتضارب بأي حال من الأحوال مع إيماننا الإسلامي. وعمومًا فإن الدراسات التاريخية الحديثة قطعت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأسفار التوراتية الخمسة الأولى والتي دونت فيها أحداث الخروج هذه لا يمكن نسبها لموسى مطلقًا، وأنها كتبت بعد وفاته بزمن طويلٍ جدًا.

***

نعود فنقول بأن المؤرخين لم يستطيعوا أثناء أبحاثهم حول النصوص التوراتية، تجاهل وجود التأثير المصري فيها، فقد كانت دهشة عالم المصريات، د. سليم حسن بالغة، حينما اكتشف هذا التشابه في مواضع عدة مع الوثائق المصرية، فكتب قائلا: (ولدينا من بين أقدم القطع الأدبية من متون الأهرام، الأناشيد الدينية، وهي تنبئ عن تركيب شعري قديم بهيئة أبيات من الشعر الموزون المقفى المنسجم في وضع كلماته ومعانيه، وقد نقل العبرانيون هذا التركيب الشعري إلى أدبهم بعد ألفي سنة منذ ذلك التاريخ، وهو تركيب معروف لنا في "المزامير" باسم "توازن الأعضاء". ويرجع استعمال ذلك التركيب في "متون الأهرام" إلى الألف الرابعة قبل الميلاد) انتهى.

هذا وقد أورد نفس المؤرخ في موسوعته مقارنة مثيرة تشير للتطابق بين المزمور (١٠٤) التوراتي بنصه وتوالي أفكاره مع أجزاء كاملة من أنشودة إخناتون في تمجيد الإله (آتون).

كما أن نفس الكاتب كان قد كتب أيضًا حول أغاني الغزل المصرية التي اكتشفت برديات قليلة منها ما نصه: (إن هذه الأغاني تشبه كثيرًا نشيد الإنشاد في التوراة، وأن بها خاصية تبدو كثيرًا في الأدب المصري وهي نداء الحبيب باستعمال لفظ الأخ أو الأخت). انتهى.

هذا ولم يورد المؤرخ د. سليم حسن في موسوعته أية مقارنة لنشيد الإنشاد مع مقاطع تلك الأغاني المصرية، وهذا ما سنقوم بعمله وإثباته أيضًا بعون الله تعالى، كما أنه لم

يلاحظ أن المحبوبة في النشيد التوراتي كانت تخاطب المحبوب بكلمة (الأخ) دائمًا، مما يشير إلى الأصل المصري الواضح لهذا النشيد؛ حيث إن زواج الأخوة كان من العادات المعروفة في الوثائق المصرية الثقافية، والمحرفة عبرانيًا.

وقد لاحظ مؤرخون غيره أيضًا وجود تشابه شديد بين سفر (الأمثال) ونصائح الحكيم المصري (أمينوبي)، فعلى سبيل المثال وليس الحصر، ما جاء في كتاب (فجر الضمير) للمؤرخ (هنري برسند)، ونصه: (وجميع العلماء بكتاب "العهد القديم" الذي يعتد بآرائهم وأبحاثهم فيه، يجزمون الآن بأن محتويات سفر الأمثال.. قد أخذت بالنص من حكم الحكيم المصري القديم (أمينوبي)، أي أن النسخة العبرانية، هي ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفي العتيق) انتهى.. إلخ.

وفي الواقع فإن غالبية ملاحظات المؤرخين قد انصبت على الأسفار الشعرية التوراتية، مثل المزامير ونشيد الإنشاد وسفر الأمثال، وكذا فسنقوم في هذه الدراسة بعقد وإضافة مقارنات أخرى مثيرة بين سفر آخر هو (سفر الجامعة) وهو نسيج شعري منسوب لسليمان نفسه، وبين قصائد إخناتون وحكم أمينوبي والأغاني الغزلية في المعابد الفرعونية، مما يعد صدمة حقيقية للمؤمنين بالكتاب المقدس الذي يتعبدون فيه، وليس هذا فحسب، بل ستكون الصدمة الأنكى والأخطر بكل المقاييس عندما سنطرح عليهم نظرية أخرى مفادها: أن القصص التوراتية مستلهمة من وحي خيال كهنوتي وفولكلوري ساذج وبدائي، وخاصة عن أحداث حروب فعلية تصادمت فيها مصالح العبرانيين والمصريين الدنيوية بشكل الحروب التقليدية، بكل ما فيها من تجاوزات من كلا الطرفين، وأن مرحلة موسى عليه السلام كانت مرحلة قصيرة تلت بعد صراع قذر طويل الأمد، وأن نقاء وقدسية تلك المرحلة قد اندثر وسط الخيالات الكهنوتية مما أضاع الأحداث الحقيقية، ولم يجد كاتبو التوراة بُدًّا من إيجاد بديل مناسب لصياغته مرة أخرى إلا باقتباس مقاطع كاملة من سجلات معارك وانتصارات ملوك مصر الموجودة في الوثائق الجدارية والبرديات المصرية ذات الصيت الواسع ونسبتها للشعب العبراني.

وهذا ما سنوضحه في الكتاب الثاني من سلسلتنا (وجادلهم بالتي هي أحسن) بإذن الله تعالى.

المراجع

* القرآن الكريم.
* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، طبعة ١٩٧٠م.
* الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، الطبعة الأولى، الإصدار الثالث، ٢٠٠٥.
* تاريخ مصر القديمة، وزارة المعارف المصرية، ١٩٥١م.
* موسوعة مصر القديمة، دكتور/ سليم حسن، ١٨ مجلد.
* الواقع والأسطورة في التورات، زينون كاسيدوفسكي، ترجمة د/ حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
* تاريخ إسرائيل: الأب متى المسكين، مطبعة دير الأنبا مقار، وادي النطرون، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧م.
* فجر الضمير: هذي برستيد، ترجمة الدكتور/ سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

obeikandl.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة لا بد منها	٥
تمهيد	٢١
بنو إسرائيل رمز الشيطان المتجسد على الأرض	٢٣
عقيدة اليهود وثنية من البداية للنهاية	٢٦
البعل هو إله إسرائيل الدائم	٢٧
ديانة العبرانيين في مصر القديمة	٣٣
استمرار العبادة الوثنية بعد الخروج من مصر	٤٧
١- عبادة العجل الذهبي	٤٨
٢- عبادة بعل فغور	٥١
عقيدة بني إسرائيل في فلسطين	٥٥
بنو إسرائيل وملوكهم إبان الدولة الموحدة	٦١
عقيدة بني إسرائيل في مملكتي الانقسام	٧٠
إسرائيل ويهوذا	٧٠
موسى عليه السلام بين القرآن والتوراة	٨٠
المراجع	٩١

obeikandl.com